

أليف
ضى المطهري

ترجمة
جعفر صادق الخليلي

Bibliotheca Alexandrina
0092503

مؤسسة البعثة
بيروت

الإنسان الكامل

تأليف
الأستاذ مرتضى المطهري

ترجمة
جعفر صادق الخليلي

مؤسسة البعثة
بيروت

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الطبعة الثانية

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - بناية غاردن بالاس - ص.ب: ٢٤/٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مَن منّا لا يريد أن يكون إنساناً أفضل ، بل من منّا لا يتمنى أن يكون الإنسان الأفضل ، فإذا تعذر الكمال ـ والكمال لله وحده ـ فأن يكون أقرب ما يمكن إلى أفضل ما يمكن .

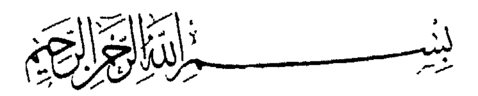
الإنسان الكامل ، هذا العنوان الذي هدف إليه الشهيد الكبير المرحوم الأستاذ الشيخ مرتضى مطهري في كتابه هذا الذي نقدمه سعداء لقرائنا ، هدف إليه لا اسماً فقط للكتاب ، بل غاية يريد أن يسعى إليها كل إنسان ، ومرفأ سموٍ يدفع إليه كل امرىء سفينة وجوده المعنوي والمادي ، وإلاّ . . . إذا لم يَسْعَ الإنسان إلى مثل هذا الهدف ، ولم يرمِ إلى الوصول إلى مثل هذا المرفأ ، فما هو إلاّ مجرد جسد ، لا يختلف في شيء عن الحيوان الذي يحصر هدفه وهمه في العلف والحظيرة ، لأن إنسانية الإنسان إنما تتجسد في المعاني العلوية التي ترفعه عن مستوى الحيوان الأعجم ، وهذه المعاني هي ما رمى الشهيد المؤلف إلى توجيه قرائه وإخوته المسلمين إليه .

إن مؤسسة البعثة التي أخذت على عاتقها نشر الثقافة الإسلامية الحميدة إلى أقصى مَدَياتها الإنسانية العالمية، والتي ترجمت وتترجم كتبها وكتب الفكر الإسلامي التراثي والمعاصر إلى معظم اللغات العالمية الشائعة ، لسعيدة إذاً جدّ السعادة أن يكون هذا الكتاب من أولى منشوراتها في فرعها الجديد في لبنان ، فالموضوع سامٍ ، والمؤلف نموذج للعالم العامل الناجح الذي أثبت مقدرةً واكتسب تقديراً ، وماذا يُطلَب لكتاب ناجح ، فوق الموضوع الموافق والمؤلف الموفق ؟ .

فأملنا أن يحظى الكتاب برضى القارىء وأن يكون كما نتوقع ذا نفع وتأثير ، والله من وراء القصد ، وله الحمد ومنه التوفيق !! .

مؤسسة البعثة

بيروت



موضوع البحث هو الانسان الكامل في المنظور الاسلامي. فالانسان الكامل يعني الانسان النموذجي، الانسان الأعلىٰ، الانسان الأسمى، أو أي تعبير آخر يعجبك. والإنسان، كأي شيء آخر فيه الكامل وفيه غير الكامل، بل فيه المعيوب والسليم. فهناك إنسان معيوب وإنسان سليم، والسليم نوعان:

١ ـ إنسان سليم كامل.

٢ ـ إنسان سليم غير كامل.

إنَّ معرفة الانسان الكامل، او النموذجي، في نظر الاسلام واجبة علينا نحن المسلمين، لان الانسان الكامل يكون بحكم المثال، والقدوة وما ينبغي أنْ يحتذى. فنحن اذا شئنا أنْ نكون مسلمين كاملين ـ والاسلام يريد صنع الانسان الكامل ـ واذا أردنا أنْ نصل الى كمالنا الانساني بالتربية والتعليم الاسلاميين،

علينا ان نعرف من هو الانسان الكامل ، وكيف هي ملامحه ، ملامحه الروحية والمعنوية ، وسيماه ، كيف هي سيماء الانسان الكامل ، وما هي مميزاته ، حتى نستطيع أنْ نصنع مجتمعنا ، افراد مجتمعنا، وأنفسنا على شاكلته. واذا لم نعرف الانسان الكامل الاسلامي ، فلن يستطيع احدنا أنْ يكون مسلما كاملا تماما ، وبعبارة اخرى ، لا يستطيع أنْ يكون في نظر الاسلام انسانا ذا كمال نسبي، في الأقل. ان لمعرفة الانسان الكامل ، في المنظور الاسلامي ، طريقين :

الطريق الاول هو أنْ نرى كيف يصف القرآن الانسان الكامل ، ثم كيف تصفه السنة النبوية ، ولو أنّ التعبير لا يكون «الانسان الكامل» بل يكون بتعبير المسلم الكامل او المؤمن الكامل. ولكن من الواضح ان المسلم الكامل هو الانسان الذي بلغ كماله في الاسلام. والمؤمن الكامل يعني الانسان الذي بلغ كماله في ضوء الايمان. فعلينا ان نرى كيف يميز القرآن والسنة الانسان الكامل ، وما هي الخطوط التي يرسمانها لملامح هذا الانسان الكامل. والحقيقة اننا نجد الكثير مما نريد بهذا الخصوص في القرآن والسنة كليهما.

والطريق الثاني هو ان نعتبر اشخاصا عينيين من الانسان الكامل ، اشخاصا نثق بأنهم قد صيغوا على وفق ما يريد القرآن ، وعلى وفق ما يريد الاسلام. أي ان نجد اشخاصاً لهم

وجود عيني ، وهم امثلة للانسان الإسلامي الكامل ، وذلك لان الانسان الإسلامي الكامل ليس مجرد صورة ذهنية خيالية لا وجود لها في الخارج ، بل ان له مصاديق عديدة في الخارج ، على اختلاف حدوده ، من الحد الأعلى جدا ، الى حد ادنى من ذلك بدرجة او درجتين .

النبي الكريم نفسه نموذج للانسان الكامل . وعلي (ع) نموذج آخر للانسان الكامل .

معرفة علي هي معرفة الانسان الإسلامي الكامل ، لا من حيث اسمه ونسبه وهويته فقد نعرف علياً معرفة هوية ، كأن نعرف أنَّ اسمه علي ، وأنّه ابن ابي طالب بن عبد المطلب ، وأنَّ امه فاطمة بنت اسد بن عبد العزى ، وأنّه زوج فاطمة الزهراء (ع) ، وهو ابو الحسن والحسين ، ولد في السنة الفلانية وتوفي في السنة الفلانية ، واسم الغزوات التي اشترك فيها الخ . هذه كلها معارف تتعلق بهوية الشخص ، ولكنها ليست هي معرفة علي ، ولا معرفة الانسان الإسلامي الكامل ، معرفة علي هي معرفة شخصيته ، لا شخصه . فمهما تكن الحدود التي نستطيع فيها ان نعرف شخصية علي الجامعة ، نكون قد عرفنا الانسان الإسلامي الكامل . ومهما تكن الحدود التي نضع فيها هذا الانسان الكامل كنموذج نقتدي به . ونسير في طريقه ،

ونعتبره إمامنا وقدوتنا عمليا ، لا اسماً ولفظاً ، ونرى انفسنا تابعين له ونسعى دائما في أنْ نصنع انفسنا على غراره وعلى مثاله وطرازه ، فاننا عند ذاك نكون من شيعة هذا الانسان الكامل ، كما قال الشهيد الثاني: «الشيعة من شايع علياً»[1]. أي إن الانسان لا يكون شيعياً بمجرد اللفظ والقول ، ولا هو بالحب والتعلق فقط يكون شيعياً ، بل بمشايعة علي وأتباعه عندما يغادرك شخص فانت تشايعه او ترافقه وتصاحبه. وشيعة علي ، هم الذين يشايعون عملياً ، لا فلسفياً وعلمياً.

اذن ، فهذان هما طريقا معرفة الانسان الكامل ، وعرفنا ايضا فائدة ذلك ، وليس لمجرد إعتبار ذلك بحثاً علمياً ، فإنّنا اذا لم نعرف الانسان الإسلامي الكامل ، سواء عن طريق القرآن والسنة ، او عن طريق معرفة الذين رباهم القرآن ، فلن نقدر على السير في الطريق الذي عينه الإسلام ، ولا أنْ نكون من المسلمين الحقيقيين حقا ، ولا يمكن لمجتمعنا أنْ يصبح مجتمعاً اسلامياً. وعليه ، فمن الضروري معرفة الانسان الكامل العالي والمتعالي الإسلامي ، وهذه هي القاعدة وهذا هو الطريق. الا إنَّ سؤالاً يتبادر للذهن عن معنى كلمة «كامل». انه في كثير من الامور واضح ، ولكن عندما يتمعن الانسان في الأمر

---

١ ـ متن اللمعة ، كتاب الوقف.

يجد انه على العكس من ذلك. وان هذا الواضح أحوج من كثير من المعضلات الى الشرح والتوضيح. فما معنى الانسان الكامل.

في اللغة العربية كلمتان متقاربتان في المعنى، ولكنهما ليستا بمعنى واحد، وثمة كلمة اخرى هي ضد تينك الكلمتين، وهي كلمة واحدة لا أكثر، تستعمل مرة ضده هذه الكلمة، وتستعمل مرة ضد الأخرى. أما في الفارسية فليس عندنا مرادف لتينك الكلمتين. انما لدينا كلمة واحدة للمعنيين. واللفظتان العربيتان هما: الكمال، والتمام. فمرة يقال: كامل، ومرة يقال: تام، وضدهما الناقص. هذا كامل وذاك ناقص. وهذا تام وذاك ناقص. وقد وردت كلتا الكلمتين في احدى الآيات القرآنية:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[2]

ولم يقل: أتممت لكم دينكم. يقولون: لو كان قد قال: أتممت لكم دينكم، لما صح ذلك لغوياً. فما الفرق بين هذين؟ إنَّنا اذا لم نشرح الفرق بينهما، لا يتهيأ لنا أنْ نبدأ بحثنا، إذ أنَّ بحثنا يبدأ بمعرفة معنى هاتين اللفظتين.

---

٢ ـ سورة المائدة، الآية ٣.

تطلق لفظة «التمام» على الدرجات التي يتطلبها وجود جميع الاشياء اللازمة لوجود شيء ما أي اذا لم يوجد بعضها ، فيكون الشيء في ماهيته ناقصاً. فهو لم يوجد كله ، بل وجد بعضه . فهذا شيء قابل للزيادة والنقصان ، فيمكن أنْ يقال نصفه موجود ، او ثلثه موجود ، او ثلثاه موجودان . كالعمارة التي يجب ان تبنى على وفق خريطة معينة ، كالمسجد مثلا. فلكي يكون المسجد مسجداً يلزمه أنْ تكون فيه قاعة ، والقاعة يلزمها الجدران والسقف والمدخل. فهو يحتاج الى اشياء كثيرة اخرى عند البناء فاذا وجدت جميع الاشياء التي يستلزمها بناء المسجد ، بحيث أنَّ عدم وجودها يجعل المسجد غير قابل للاستفادة ، عندئذ يقال : البناء تام . ويقابله : البناء ناقص.

اما الكمال فهو درجات يمكن أنْ يصل اليها الشيء بعد أنْ اصبح تاماً ، درجة بعد درجة . اذا لم يكن هذا الكمال ، فالشيء موجود بتمامه ، ولكن اذا اضيف اليه الكمال ، ارتفع درجة واحدة. يعتبرون الكمال خطاً عمودياً ، والتمام خطاً افقياً. أي ان الشيء عندما يبلغ نهايته افقياً يقال انه قد تم ، وعندما يتحرك عمودياً ، يكون متجهاً نحو الكمال. يقال ان فلانا قد كمل عقله ، فهو كان عاقلاً قبل ذاك ولكن عقله قد ارتفع الآن درجة . او يقال علم فلان قد اكتمل ، فهو كان له علم ، وكان يستفيد من علمه ولكنه الآن ارتقى درجة اخرى من درجات الكمال. إنَّ

الانسان الكامل معناه وجود انسان تام في قبال انسان لم يزل افقياً غير تام ، لم يزل نصف انسان ، كسر انسان ، ربع انسان ، ثلث انسان ، ليس انساناً تاماً. والانسان يكون تاماً ، ويكون قابلا لكي يكون كاملاً ، ويكون أكمل ، وأكمل ، الى ذلك الحد النهائي ، ذلك النهائي الذي لا يكون فوقه انسان. ذلك هو الانسان الكامل ، وهو الذي بلغ ارفع حدود الانسانية.

إنَّ تعبير «الانسان الكامل» لم يكن له وجود في الآداب الإسلامية حتى القرن السابع الهجري ولكنه اليوم مستعمل حتى في اوروبا. واول من استعمل هذا التعبير في عالم الإسلام بشأن الانسان وطرح موضوعاً باسم الانسان الكامل ، هو العارف المعروف (محي الدين العربي الاندلسي الطائي). ومحي الدين هذا هو أبو العرفان والتصوف الإسلامي. أي أنَّ جميع هؤلاء المتصوفة والعرفانيين الذين نعرفهم في جميع الملل الإسلامية ، بما فيهم الفرس والايرانيين الذين ظهر ذوو الشأن فيهم من القرن السابع فما فوق وفي اوائل القرن السابع ، هم جميعاً من تلامذة مدرسة محي الدين. مولوي نفسه احد تلامذة مدرسة محي الدين. إنَّ مولوي على عظمته لا يعد شيئاً مذكوراً بازاء محي الدين في مسائل العرفان والتصوف. ومحي الدين العربي يتصل نسبه الى حاتم الطائي ، ظهر في الاندلس ، ولكنه رحل الى كثير من الاقطار العربية والاسلامية ، وتوفي في الشام ، وقبره ما

يزال هناك .

احد تلامذته يدعى صدر الدين غونوي ، برز بعد استاذه .

وكان من اشهر رجال العرفان. اما التصوف الإسلامي الذي بدأ كعلم غامض جداً ، فهو من عمل محي الدين ، وعليه شروح صدر الدين غونوي. وكان مولوي معاصراً لصدر الدين الذي كان امام جماعة في احد المساجد ، فكان مولوي يقتدي به في الصلاة ، فانتقلت افكار محي الدين الى مولوي عن طريق صدر الدين. اما ما تسمعونه بخلاف هذا حول هذا الموضوع فلا صحة له. ان للتصوف الإسلامي جذوراً غير هذه الترهات التي اخذ ينشرها بعضهم هذه الايام في الصحف والمجلات.

من المسائل التي طرحها هذا الرجل هي مسألة الانسان الكامل ، ولكنه ، بالطبع ، طرحها من حيث المنظور العرفاني . الا أنَّه استعمل لفظة الانسان الكامل وشرحها من وجهة النظر العرفانية الخاصة. الا ان الآخرين ايضا فسروا الانسان الكامل بحسب وجهات نظرهم . وهذا هو الذي نريد ان نشرحه من حيث وجهة نظر القرآن ، لكي نعرف كيف ينظر القرآن الى الانسان الكامل. وهذا يقتضينا ، بالضرورة ، أنْ نبدأ بالكلام على الانسان التام والانسان الناقص ، لأننا ما لم نطو هذه المرحلة لا يمكن ان نصل الى تلك المرحلة.

هنالك انسان سالم وانسان معيوب ، وهي سلامة وعيب يرتبطان بجسم الانسان ، فمما لا شك فيه ان هناك انسان سالم جسمياً ، وآخر معيوب جسمياً. الا ان هذا يخص الانسان. أي أنَّ الانسان اذا كان أعمى ، أو اخرس ، أو أشل ، أو قصيراً ، فإنك لا تعتبر أيا من ذلك نقصاً في فضيلة الرجل ولا في انسانيته وشخصيته ، فسقراط ، الفيلسوف اليوناني المعروف ، الذي يعتبره بعضهم من الانبياء ، كان من اقبح الناس وجهاً ، الا أنَّ احدا لا يعتبر ذلك عيباً في سقراط. او ان ابا العلاء المعري الفيلسوف كان أعمى ، وطه حسين من المعاصرين كان أعمى ايضا. فهل هذا العمى نقص في شخصيتهما وعيب فيهما ؟ كلا ، ليس الأمر كذلك. وهذا نفسه دليل على أن في الانسان شيئين. له شخصيتان: جسمية وروحية. له جسم ونفس. وحساب النفس غير حساب الجسم. إنَّ القول بأنَّ نفس الانسان تابعة للجسم ، إنَّما هنا يظهر أنَّه خطأ مئة بالمئة. خذ مثلا: هل يمكن أن تكون نفس الانسان مريضة ويكون جسمه سليما ، أم لا؟ هذه ايضا مسألة قائمة بذاتها. إنَّ الذين ينكرون الروح واصالتها ويعتبرون جميع الخصائص الروحية ، التي تكون مباشرة وبغير وساطة ، ناشئة من الجهاز العصبي ، لا يرون للنفس وجودا أصلا ، ويقولون إنَّ كل شيء تابع للجسم ، فاذا كانت نفسية المرء مريضة فجسمه هو المريض حتما وهو السبب

فالمرض النفسي هو المرض الجسمي. ولكن من حسن الحظ أنَّه قد القي مؤخراً ضوء اكثر على أنَّ الانسان يمكن أنْ يكون جسمياً سليماً. فمن حيث دمه، وعدد كرياته البيض والحمر، ومن حيث جهـازه العصبي، وكمية الفيتـامينات فيـه، يكـون الجسم سليماً طبياً، ولا يكون في اعصابه اي مرض، ومع ذلك يكون نفسياً مريضاً كأن تكون فيـه، كما يقـال اليوم، عقـدة نفسية. يقول العلم المعاصر إنَّ من به عقدة نفسية فهو مريض، أي أنَّ هناك اختلالا في جهازه النفسي، بغير أنْ يصاحبه اي خلل جسمي، ولهذا السبب فإنَّ علاج هذا الاختلال النفسي لا يكون دواءاً مادياً. فمثلا اذا كان احد مصابا بعقدة التكبر - وهي قد ثبت أنَّها مرض واختلال نفسي وروحي - فهل يمكن العثور على دوائه في الصيدليات، وانه اذا تناول ذلك الدواء يتغير تكبره الى تواضع؟ أو هل يمكن تحويل انسان قاسي القلب سفاح، بالاقراص والحقن، الى انسان رحيم عطوف؟ بل إنَّ الافتقار الى ذلك يوجد الامراض في الانسان. إنَّ الذي يحس بالحقد على شخص آخر، يتمنى لو انتقم منه، ولا يقر له قرار حتى يورده موارد الهلاك.

فما هي هذه الرغبة في الانتقام في الانسان؟ هذا أمر قائم بذاته. إنَّ الحسود عندما يرى النعمة في الآخرين يتمنى بكـل جوارحه ان تزول تلك النعمة عنهم، بغير أنْ يريدها لنفسه. اما

الانسان السليم فانه يغبط الآخرين ، ولا يحسدهم. إنَّه يفكر في نفسه ويسعى لكي يسبق الآخرين. إذا فكر الإنسان أن يكـون دائماً متقدماً، فإنه يكون سليماً ، اذ ان ذلك لا يكون عيباً فيه. اما الذي لا يفتأ يدعو ان يتأخر فلان ، فإنّه مريض. وقد تشاهدون احيانا انسانا حسودا يصل به الأمر الى حيث أنْه يرتقي لنفسه أنْ يصاب بمئة مصيبة اذا اصيب الذي يحسد بخمسين.

هناك قصة تاريخية معروفة في كتب التاريخ. يقولون: في عهد احد الخلفاء كان هناك رجل ثري اشترى غلاماً ، ولكنه منذ البداية لم يعامله كما يعامل الغلمان ، بل اخذ يعامله معاملة السادة ، فيقدم له ألذّ الاطعمة ، ويلبسه أغلى الملابس ، ويهيء له افضل وسائل الراحة ، وكأنه ابنه ، بل وبأفضل من معاملته لابنه ، بما في ذلك منحه مبالغ كبيرة من المال. الا ان الغلام كان يرى ان سيده دائم التفكير كثير القلق ، حتى انه قرر اخيرا أنْ يعتقه ويهبه رأسمالاً كبيرا. وفي ليلة جلس يشكو للغلام ما ينتابه من هم وغم. قال له: إنّني على استعداد لعتقك ، ولاعطائك كذا مقدار من المال ، ولكن أتدري لم قمت لك بكل هذه الخدمات؟ فقال: لا. فقال: لطلب واحدا اريدك أنْ تنفذه ، واذا نفذته فحلال عليك كل الذي اعطيته لك ، واذا لم تنفذه فلن ارض عنك. واذا وعدت بتنفيذه فسوف اعطيك اكثر. فقال الغلام: عليك الأمر وعلي الطاعة ، فانت ولي نعمتي ،

ووهبتني الحياة. قال: كلا. عليك أنْ تعدني وعداً قاطعاً ، لأني اخشى اذا كشفت لك الأمر أنْ ترفض. فقال: ابدا ، قل مابدا لك. واذ وثق الرجل لكلام الغلام ، قال له: انني سوف آمرك في مكان معين وفي ظرف خاص أنْ تحزَّ رقبتي من الوريد الى الوريد. فقال الغلام: ما معنى هذا؟ فقال: هذا هو طلبي. فقال لا يكون شيء كهذا. فقال: بل يكون ، لأنك قد وعدتني ، ولا بد أنْ تفي بوعدك. وعند منتصف احدى الليالي ايقظ الغلام وناوله سكيناً حادة ،وتقدم على اطراف اصابعه صاعدا الى سطح دار جاره ، وناول الغلام كيساً من المال ، ونام على السطح ، وقال له: الآن اقطع رأسي واذهب الى حال سبيلك. فسأله الغلام: لماذا؟ فقال: لأني لا أتحمل رؤية هذا الجار ، فالموت أحب اليّ من الحياة مع هذا الانسان الذي يتقدمني في كل شيء ، وكل ما عنده خير مما عندي. كنا نتنافس فسبقني. إنّني احترق في النار. اريد أنْ اتهمه بجريمة قتل تلقي به في السجن. فاذا حصل هذا فسوف ارتاح. هذا كل شيء. فاذا قتلت هنا في دار منافسي ، فغدا عندما يسألون: من الذي قتله؟ سوف يقال منافسه هو الذي قتله ، خاصة وأنّه وجد على سطح داره. فيقبضون عليه ويسجنونه ، ثم يعدمونه فتتحقق امنيتي. فقال الغلام: مادمت على هذه الدرجة من الحماقة ، فلماذا لا أفعل؟ انك تستحق القتل فعلا. وقتله ، واخذ كيس المال وانصرف.

وانتشر الخبر ، وقبض على المنافس والقي في السجن ثم خطر لهم انه اذا كان هذا هو القاتل حقا لما قتله على سطح داره. وتعقدت القضية ولم يعرفوا لها حلا. اما الغلام فراح ضميره يؤنبه حتى حمله على التسليم للحكومة وكشف لهم عن حقيقة الحادث ، وقال: انني قتلته بناء على طلبه ورغبته ، لأنه كان يشتعل في نار حسده اشتعالاً فضّل معه الموت على الحياة. فصدقوه ، واطلقوا سراحه وسراح منافس القتيل.

تلك هي حقيقة ، وهي مرض فعلا ، فالمرء يصاب بمرض الحسد. ولقد جاء في القرآن:

﴿قَدْ اَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاهَا﴾[٣].

وعليه ، فان اول خطوة في منهج القرآن هي تزكية النفس ، وتهذيبها ، وتطهيرها من الأمراض والعقد ومن الظلام ، ومن القلق ، ومن الانحراف ، بل ومن المسخ ، وهي مسألة مهمة جدا. فما معنى المسخ؟ لعلك قد سمعت ان في الامم القديمة كان اناس قد ارتكبوا الكثير من الاثم ، فدعا عليهم نبيهم فمسخوا ، أي تحولوا الى حيوان ، الى قرد ، او ذئب ، او دب ، او أي حيوان آخر. هذا يقال له المسخ. فلننظر ، هل حقا

---

٣ ـ سورة الشمس، الآية ٩و١٠.

مسخ الانسان وتحول الى حيوان؟

هنا ينبغي أنْ نقول انه حتى اذا فرضنا ان الانسان لا يمسخ جسميا الى حيوان ، ولكن الذي لا شك فيه هو أنَّ الانسان يمكن أنْ يمسخ روحياً ونفسياً ويتغير الى حيوان ، بل قد يتحول الى نوعٍ من الحيوانِ ليس في العالم أحط منه وأقذر. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٤] كما يقول القرآن ، اي انهم أحط من ذوات الأربع . فكيف يكون هذا؟ أيصح أنْ يتحول الانسان روحياً الى حيوان؟ نعم ، لأن شخصية الانسان كانسان تتجلى في خصائصه الاخلاقية والنفسية ، فاذا لم تكن خصائص الانسان الاخلاقية والنفسية متسمة بالخصائص الانسانية في الخلق والنفسية ، بل اتسمت بخصائص حيوان مفترس ، او بهيمة ، واخلاقيته فهذا هو المسخ . وهذه هي الحقيقة ، فانها روحه التي مسخت . ان الخنزير الذي نراه فيه تناسب بين روحه وجسمه . فقد تكون جميع خصال الانسان اشبه بخصال الخنزير ، فهذا يكون قد انسلخ من الانسانية ، واصبح في المعنى وفي الباطن وفي عين الحقيقة وفي الملكوت خنزيراً حقاً ولا شيء غير ذلك .

وعليه ، فان الانسان المعيوب قد يصل الى أنْ يصبح انساناً مسخاً . هذه امور قلما نسمع عنها وقد يحسبها بعضهم من الامور

---

٤ ـ سورة الاعراف، الآية ١٧٩ .

المجازية فلا يصدقونها ، ولكن تلك هي الحقيقة. قال رجل كنا مع الإمام السجاد (ع) ذاهبين الى مكة. في صحراء عرفات نظرنا فاذا بالحجيج يعدون بالآلاف ، وقال الرجل أنه رأى الناس ، من مكانه المرتفع ، وكأنها أمواج تموج ، فالتفت الى الامام قائلاً: ما اكثر الحجيج فقال الامام: «مَا أَكْثَرَ الضَّجِيجَ وَأَقَلَّ الْحَجِيجَ»[٥]. ويقول الرجل: لا ادري ما فعله بي الامام والنظرة التي اوحاها الي ، والعين التي فتحها لي ، انما قال لي: الآن انظر. فنظرت واذا بالصحراء مليئة بحيوانات من مختلف الانواع كحديقة الحيوانات ، وبينهم بعض الاشخاص يتحركون. وقال الامام: ها أنت ترى باطن القضية. هذا امر واضح وضوح النهار عند اهل المعنويات واهل الباطن ، أما اذا لم يشأ العقل المتجدد قبول ذلك فهو على خطأ ، ففي زماننا هذا يوجد اناس يستطيعون أنْ يدركوا الانسان على حقيقته ، وأنْ يروا ان الانسان شبه بذي الاربع ، الذي لا يفهم شيئا سوى الأكل والنوم والجنس ، لا يمكن ان تختلف روحه عن ارواح ذوات الاربع ، وان باطنه قد مسخ ، اي أنَّ الحقائق الانسانية وانسانيته قد سلبت منه كليا ، واستبدل بها ، بيده ، الصفات الحيوانية.

نقرأ في سورة «عمَّ»:

---

٥ ـ سفينة البحار، ج٢، ص٧١. اثبات الهداة ج٥، ص٣٩.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً وَسُيِّرَتْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾[6].

ويكرر القادة من رجال الدين أنَّ فوجاً واحداً فقط من الناس يحشرون على هيئة انسان ، واما الافواج الاخرى فهي على هيئات الحيوانات ، فبعض بهيئة النمل ، وبعض بهيئة القرود ، وبعض بهيئة العقارب وبعض بهيئة الافاعى ، وبعض بهيئة النمور. لماذا؟ هل يمكن ان تحوّل هيئات الناس الى حيوانات بغير سبب؟ كلا. إنَما هذا يعنى ان من كان في الدنيا على غرار العقرب ، لا هم له سوى اللسع ، ولا يلذ له الا ايذاء الناس ، يحشر على صورته الحقيقية. والذي كان عمله في الدنيا لا يتعدى ما يفعله القرود لا شك يحشر يوم القيامة.على هيئة القرود ، لأنه قرد بصفاته. والذي كان كالكلب ، يحشر على هيئة الكلاب ، وذلك لأنه «يحشر الناس على نياتهم». فما في الناس من نوايا وخصال وصفات واهداف وامنيات حقيقية هي التي يحشرون بها يوم القيامة. فما أنت في هذه الدنيا؟ وما الذي تريد ان تكونه وما الذي تريده؟ هل طلباتك طلبات انسان؟ أم انها طلبات حيوان مفترس ، او طلبات طائر؟ مهما تكن طلباتك تكن مثل صاحبها الذي تحشر على شاكلته. ولذلك فاننا منهيون

---

٦ ـ سورة عم يتساءلون، الآيات ١٨و١٩و٢٠ .

عن كل العبادات عدا عبادة الله . فما نعبده نكون مثله . فاذا كنا نعبد المال اصبح المال جزءاً من ماهيتنا ومن وجودنا ، وهذا المال يوم القيامة هو ذلك المعدن الذائب الذي يقول عنه القرآن :

﴿وَالَّذينَ يَكْنُزونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ ولا يُنْفِقونَها في سبَيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أليم . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا في نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ﴾(٧) .

فهذه هي التي تحمى وتكون ناره. لا تقولوا ان النقد المعدني قد زال وحلت محله العملة الورقية. كلا. لكل شيء في الآخرة ماهيته الخاصة به ، فالعملة تظهر في الآخرة على هيأة نار ناشئة من الاصفر والابيض والتي يشتد اكتواء الانسان بها. فهذه هي ما تمسخ الانسان وعليه فالانسان المعقد انسان معيوب. إنَّ الانسان الذي يعبد مادة ما يكون انساناً معيوباً مسخاً إنَّ الكمال في كل مخلوق يختلف عنه في المخلوق الآخر ، فالانسان الكامل ، مثلا ، غير الملك الكامل. فاذا كان الملك في ملائكيته يمكن أنْ يصل الى الحد الأعلى من حدود كماله ، فانه يختلف عن الانسان وهو في عالم انسانيته ، عندما يصل الى الحد الاعلى من الكمال الانساني ، وذلك لأن الذين ، علمونا

---

٧ ـ سورة التوبة الآيتان ٣٤و٣٥.

بوجود الملائكة قالوا لنا ان الملائكة مخلوقون من العقل المحض ، الفكر المحض ، اي انهم ليس فيهم اي جانب ارضي ، مادي ، شهواني ، غضبي ، وامثال ذلك. وهكذا الحيوانات ، فالحيوانات ارضيين صرفا مجردين مما يدعوه القرآن بالروح الآلهية. انما الانسان هو الكائن المركب من العناصر الملائكية والعناصر الارضية. انه كائن ملكوتي وفلكي. انه كائن علوي وسفلي ، وهذا هو نص الحديث الوارد في «الكافي»:

«إِنَّ اللّهَ تعَالَىٰ خَلَقَ الْمَلاَئِكَةَ وَرَكَّبَ فِيهِمْ الْعَقْل ، وَخَلَقَ الْبَهَائِمَ وَرَكَّبَ فِيهَا الشَّهْوَة ، وَخَلَقَ بَنِي آدَمَ وَرَكَّبَ فِيهِمْ الْعَقْلَ وَالشَّهْوَةَ. فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ عَلَىٰ شَهْوَتِهِ فَهُوَ أَعْلَىٰ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ، وَمَنْ غَلَبَ شَهْوَتَهُ عَلَىٰ عَقْلِهِ فَهُوَ مِنْ الْبَهَائِمِ»[٨]. وقد وردت هذه الرواية عند اهل السنة بالفاظ مقاربة.

ثم يقول إنَّ جمعا قد خلقوا من النور المطلق ، وجمعا من الغضب والشهوة ويقصد بهم الحيوانات اما الانسان فقد خلقه اللّه مركباً. فالانسان الكامل الذي يختلف عن الحيوان الكامل ، عن الحصان الاصيل الكامل ، كذلك يختلف عن الملك الكامل. إنَّ اختلاف الانسان عن اولئك متأتٍ من اختلاف

---

٨ ـ اصول الكافي ـ تفسير الصافي ـ علل الشرايع.

تركيب ذاته :

﴿إنَّا خَلَقْنَا الأنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمْشَاجٍ نَبْتَلِيْهِ﴾[9].

أي أنَّ الله خلق الانسان من نطفة حفظ فيها الكثير من القابليات او الاستعدادت او «الجينات» بالمصطلح المعاصر ، وانها قد بلغت مرحلة وضعها اللّه خلالها موضع الاختبار ، أي انها قد بلغت حدا من الكمال بحيث أنّه خلقه حراً له حرية الاختيار ، جديراً بتحمل مسؤولية التكاليف ، ووضعه في معرض الابتلاء والامتحان والحصول على الدرجات. ولأن نطفته امشاج ، مزيج من التسبيحات والتفاعلات المختلفة ، فقد عرّض للامتحان وللتقدير وللثواب وللعقاب ، اما الكائنات الاخرى فليست لها تلك الجدارة.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعَاً بَصِيْراً. إنّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمّا شَاكِراً وإمّا كَفُوراً﴾[10]. .

لا يمكن التعبير عن حرية الانسان في الاختيار ، واصل حريته في الاختيار ومبناه بأفضل وأجمل من هذا التعبير: لقد اختبرناه ، وجعلناه يسمع ويبصر ويدرك ، وأريناه الطريق ، وله بعد ذلك بملء اختياره أنْ يسير فيه أوْ لا يسير. ﴿إنّا هَدَيْنَاهُ

9 ـ سورة الدهر، الآية ٢.

10 ـ سورة الانسان، الآية ٢و٣.

السَّبيلَ إمَّا شَاكِراً وإمَّا كَفُوراً﴾ عندئذ ، هذا الانسان الكامل ، الانسان الذي يقول القرآن ﴿خَلَقْناهُ مِنْ نُطفَةٍ أمْشاجٍ﴾ يختلف انسانه الكامل ، لهذا السبب عن الملك الكامل ، فكمال الانسان يكمن في تعادله وتوازنه ، أي أنَّه بالنظر لوجود كل هذه الاستعدادت والقابليات المختلفة فيه ، ينبغي ألا يتمسك بواحدة منها فقط ويهمل سائر قابلياته ويعطلها عن العمل فالانسان الكامل هو الذي يعني بها جميعا ويربيها وينميها معا في حالة متعادلة ومتوازنة ، اذ ان العلماء يقولون ان حقيقة العدل ترجع الى التوازن والتجانس. والتجانس هنا يعني أنَّه في الوقت الذي تنمو فيه جميع قابليات الانسان ، يكون هذا النمو بصورة متجانسة .

والآن اضرب لكم مثلاً بسيطاً. فالطفل ينمو ويكبر ، وللطفل يد ورجل ورأس وفي رأسه عينان وانف وفم واسنان وله احشاء وامعاء. فهذه كلها في الطفل السليم تنمو وتكبر في انسجام وتجانس. والآن فلنتصور حالة كاريكاتورية ، كما في الصور ، ان شخصاً لا ينمو منه الا عضو واحد ، انفه مثلاً هو الذي يكبر دون سائر الاعضاء بحيث يصبح انفه بحجم جسمه ، او ان عينيه فقط يكبران ، اورأسه فقط ويبقى جسمه صغيراً ، او يكبر جسمه ويبقى رأسه صغيراً ، او تنمو يداه ولا تنمو رجلاه ، او تنمو قدماه ولا تنمو يداه ، فهذا نمو غير متجانس. الانسان

الكامل هو الذي تنمو جميع قيمه الانسانية معا بانسجام وتناسب ، لا تتخلف واحدة عن اخرى في النضج والنمو حتى تبلغ أعلى مستوياتها ، عندئذ يكون هذا انساناً كاملاً ، ويصبح ذلك الانسان الذي يصفه القرآن بأنه الامام:

﴿وإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنّي جَاعِلُكَ لِلْنَاسِ إِمَامَاً قَالَ ومِنْ ذُرِّيَّتي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ﴾[١١].

فابراهيم بعد ان اجتاز اختبارات ربه العظيمة المتنوعة وأتمها ، ونجح في كل تلك الامتحانات بدرجات عالية ، وهي لم تكن امتحاناً واحداً ولا اثنين ولا ثلاثة ولا اربعة ، بل كانت امتحانات عظيمة كان واحداً منها ان يعد العدة لذبح ابنه بيده في سبيل الله.

هذا هو التسليم ، بعد أنْ عرف ان الذي يأمره بذلك هو الله ، فاستعد لتنفيذ الأمر بغير اعتراض. وعندما حان الحين ، وبعد ان تهيأ اسماعيل نفسه للذبح ، يأتيه نداء ربه:

﴿ونَادَيْنَاهُ أنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾[١٢].

نعم ، إنَّ الأمر قد انتهى ، وإنَّ ما كنا نريده منك هو هذا

---

١١ ـ سورة البقرة، الآية ١٢٤.

١٢ ـ سورة الصافات. الآية ١٠٤.

التسليم لأمرنا والرضا بقضائنا الى هذا الحد. فبعد ان اجتاز ابراهيم كل تلك الاختبارات ، من الالقاء في النار حتى اخذ ابنه للذبح وخرج منها فائزاً بمفرده ، يتضح :

﴿إِنَّ ابْراهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾[13].

إنَّه ينافح قوماً بمفرده ، فيقول له الله ﴿إِنّي جَاعِلُكَ لِلْنَاسِ إِمَامَاً﴾ فقد بلغت مرحلة تكون فيها قدوة إماماً ، رائداً ، نموذجاً للآخرين. وبتعبير آخر ، انت الآن انسان كامل ، وعلى الناس الآخرين الذين يريدون ان يبلغوا كمالهم أنْ يتخذوك مثلا ويحذون حذوك.

علي (ع) انسان كامل ، لأن جميع القيم الانسانية قد نمت وبلغت فيه الحد الأعلى في الرشد وبتناسب وانسجام ، بهذه الشروط الثلاثة: نمو جميع القيم ، وبلوغها الحد الاعلى في النمو ، والتناسب في نموها. ولعل قضية الانسجام هذه تتطلب بعض التوضيح. لا شك انكم قد سمعتم بالمد والجزر في البحر. فالبحر في مد وجزر مستمرَّيْن ، وعندما يصيب المد هذا الجانب يحدث مثله في الجانب الآخر ، ولقد ثبت منذ القديم أنَّ للقمر تأثيراً في المد والجزر. إنَّ البحر دائم الهيجان ودائم

---

١٣ ـ سورة النحل، الآية. ١٢٠.

المد والجزر ، تمتد من هنا وتجزر من هناك . إنَّ روح الانسان ، وبالتالي المجتمع الانساني ، فيه هذه الحالة من المد والجزر الموجودة في البحر ، فروح الانســان في مد وجـزر دائمين ، ينجذب من هنا ومن هناك ، وكذلك الامر في المجتمعـات ، فمرة تنجذب الى هذا الجانب ، ومرة الى ذلك الجانب. طبيعي أنَّ المجتمع قد ينجذب بفعل الافراد او بفعل احداث اخرى ، الا أنَّ الانجذاب موجود. ولكننا في الوقت الحاضر لا نريد أنْ نخـوض في الانجذابـات الارضية الحيـوانيـة ، بـل إنَّ القيم الانسانية عند الانسان كذلك ايضا ، فانتم قد تشاهدون اشخاصاً يتمسكون حقا بالقيم الانسانية ، الا أنَّ احدى هذه القيم تتمدد فيهم ويكبر حجمها حتى تنسى جميـع القيم الآخرى. فهؤلاء اشبه بذاك الذي تنمو فيـه اذنه فقط ، او انفه فقط. إنَّ اغلب الانحرافات في المجتمعات ناشىء من عدم الانسجام والتناسب إنَّ المجتمع لن ينحرف مئـة بالمئـة عن طريق البـاطل ، بـل الاغلب أنْ ينحــرف المجتمــع بسبب الافــراط في حق من الحقوق. فمثلا ، ان واحدة من القيم الانسانيـة التي يؤيدهـا الاسلام مئة بالمئة هي العبـادة والعبادة هي ذكـر الله ، العبادة بمعناها الخاص. ففي الاسلام كل ما يفعله الانسان لله عبادة .

فعندما يخرج للتكسب بهدف سد حاجته وحاجة عيالـه، وخدمة مجتمعه، يكون قائماً بالعبادة بالمعنى الخاص، كالخلوة

مع الله، والصلاة والدعاء والمناجاة والتهجد، وهذه اجزاء من متون الاسلام ولا يمكن حذفها من الاسلام. هذا بذاته قيمة من القيم الحقيقية، ولكن اذا لم تراقب وتوضع لها الحدود فقد ينجذب المجتمع الى هذه القيمة فحسب، وعندئذ لا يكون الاسلام الا عبادة، ويصبح فقط الذهاب الى المسجد، واقامة الصلوات المستحبة، والدعاء، والتعقيبات، واداء الاغسال المستحبة، وقراءة القرآن، أي الاتجاه الى امور اذا افرط المجتمع في السير فيها، لانمحت كل القيم الاخرى من المجتمع، كالذي رأينا أنّه حدث في تاريخ الاسلام حيث ظهر مد من هذا القبيل في المجتمع الاسلامي، كما أننا نلاحظ افرادا سليمي النية ولا يمكن اتهامهم بشيء. ولكنهم واقعون على هذا الطريق، ومن يقع في هذا الطريق لا يمكنه ان يحتفظ بتعادله، ولا يستطيع ان يقول: انني انسان وان الله قد خلقني انساناً ولم يخلقني ملكاً، فلو كنت ملكاً لكان علي ان اذهب الى الطرف الآخر. على الانسان أنْ ينمي في نفسه افكاراً مختلفة وان ينميها في تجانس وتناسب.

قيل للنبي الكريم ان بعضا من اصحابك قد غرقوا في العبادة. فغضب النبي (ص) وجاء المسجد ونادى في الناس وقال انه سمع ان فيهم من يوصل الليل بالنهار عبادة مع انه وهو نبيهم لا يفعل هكذا بل يستريح بعض الليل، وينام، وينظر عياله

ويقارب زوجه، ولا يصوم الايام كلها، بل يصوم في بعض ويفطر في بعض. وقال ان اولئك خارجون عن سنته.

عندما يرى النبي (ص) ان احدى القيم الاسلامية تغطي على القيم الاخرى، أي ان المجتمع الاسلامي قد اصيب بالمد الى ناحية واحدة، فانه يحارب ذلك شديداً.

كان لعمر بن العاص ولدان، عبدالله ومحمد. كان محمد أقرب الى طراز ابيه طلبا للدنيا وللرئاسة، بينما كان عبدالله تقياً نجيباً. عندما كان يستشيرهما أبوهما، كان عبد الله يدعو اباه للالتحاق بعلي (ع)، وكان الآخر يمنعه من ذلك قائلا انه لن يجد خيراً مع علي، ويحثه على الالتحاق بمعاوية. وكان المعروف عن عبدالله انه يميل الى العبادة. وقد التقاه النبي (ص) مرة وقال له: سمعت انك تحيي الليل بالعبادة حتى الصباح، وتصوم نهارك. فقال: نعم يا رسول الله، اني كذلك فقال رسول الله: ولكني لست كذلك ولا ارتضيه، ولا يصح.

قد ينجرف مجتمع ما نحو الزهد، والزهد حقيقة واقعة غير قابلة للانكار. ولكن الزهد قيمة من القيم لها آثارها وفوائدها، وإنَّه لمن الممتنع المستحيل أنْ يرى مجتمع وجه السعادة، او في الأقل يمتنع اَنْ نعد مجتمعاً من المجتمعات اسلامياً بغير اَنْ يكون عنصر الزهد موجودا في ذلك المجتمع. ولكن قد يحدث

أنْ يجر هذا العنصر المجتمع نحوه، ويصبح كل شيء زهداً، ولا شيء غير الزهد.

من القيم الأخرى خدمة الناس، وهي من القيم الانسانية الثابتة، والاسلام يؤيدها مئة بالمئة والحقيقة إنَّ هذه من افضل القيم الانسانية ولَكَمْ اكد الرسول الكريم عليها، وما اكثر ما يحث عليها القرآن وعلى التعاون ومديد المساعدة للناس.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ والْمَلائكَةِ والْكِتَابِ والْنَبِيِّينَ وآتىٰ المالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي القُرْبىٰ واليَتامىٰ وَالْمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وَفي الرِّقابِ . . .﴾[١٤].

وهذه من القيم غير القابلة للانكار. ولكن قد يبالغ المرء فيعتبر، كما يقول سعدي، ان «العبادة ليست سوى خدمة الناس» وان لا عبادة غير ذلك، ويلغي باعتباره هذا القيم الاخرى، فينكر العبادات الاخرى في الزهد، وفي العلم، وفي الجهاد، وينكر كل تلك القيم الرفيعة العظيمة في الاسلام، ولا يعترف الا بقيمة واحدة وعبادة واحدة هي خدمة خلق الله.

واليوم يرى بعض المتنورين، خصوصاً، انه قد اكتشف

---

١٤ ـ سورة البقرة ـ الآية ـ ١٧٧.

منطقاً سامياً جداً، واطلقوا على ذلك المنطق الرفيع اسم الانسانية وحب البشر. فما معنى حب البشر؟ أَنْ تخدم الناس أمر حسن جدا، فلنخدم الناس، بصرف النظر عمن يكونون. انما نحن نخدم الناس فقط، وخدمة خلق الله لا بد منها، بغير تمييز. حسن، لنفرض اننا قد ملأنا بطون خلق الله وكسونا أبدانهم، الا اننا نكون قد خدمنا حيوانا، اذ اننا اذا لم نعترف لهم بمقام أعلى، ونحصر كل القيم في خدمة خلق الله، بغير أنْ تكون فينا قيمة من القيم، ولا أنْ تكون في الاخرين قيمة من القيم فان جميع خلق الله لا يزيدون على قطيع من الاغنام او من الخيل. صحيح اننا ملأنا بطونهم وكسوناهم ولكن الهدف الأعلى للبطون هو ان تمتلىء، مع بقاء الحيوانية على حالها، وانا ايضا يكون الحد الاعلى لخدمتي هو ان اخدم حيواناً مثلي، وتكون الأهداف العليا لأمثالي من الحيوانات هي ان تخدم حيوانات اخرى مثلي، لا خدمة الانسان الذي يتصف بالانسانية. فاذا كانت خدمة خلق الله لا تتجاوز هذا الحد، بصرف النظر عن نوعية هذا الخلق ما دام من خلق الله، وبغير تمييز بين ان اخدم أبا ذر أو ان اخدم معاوية، واذا لم يكن لخلق الله غير هذه المنزلة، فهذا ايضا ضرب من الافراط.

أو خذ الحرية مثلا. فالحرية واحدة منِ اعظم القيم الانسانية وارفعها، أو قل انها من القيم المعنوية، أي من القيم

التي تعلو على حدود حيوانية الانسان. الحرية للانسان ارفع بكثير من القيم المادية. إنَّ الانسان الذي سبق أنْ شم رائحة الانسانية ليرتضي العيش جائعاً وعارياً ويتحمل اشق ظروف الحياة على ان لا يكون أسير شخص آخر، ولا يقع تحت حكم انسان آخر، بل ان يعيش حراً.

ثمة حكاية في كتاب «مرآة العلماء» تقول ان ابن سينا قد استوزر فترة من حياته. وفي احد الايام، وهو يسير في الشارع بكبكبته وحاشيته وجلاله، اتفق ان مرّ بجانب مرحاض كان بعض العمال ينزحونه. كان ابن سينا معروفاً بحدة ذكائه وحواسه ايضا، فسمع العامل في بئر المرحاض يغني وينشد هذا البيت:

گرامى داشتم اى نفس ازآنت
كه آسان بگذرد بردل جهانت

بمعنى: انني احترمك ايتها النفس لأن دنياك تمر على القلب رخية سهلة. فضحك ابن سينا من هذه المفارقة، وهي ان تكون مهنة هذا الرجل من احسن المهن، ومع ذلك فهو يمن بها على نفسه اوقف حصانه وتقدم نحو الفتحة وخاطب الرجل قائلاً: حقا لقد احترمت نفسك وما كان ممكنا خير من هذا. وعندما رأى النزاح هيكل المتكلم وحاشيته وفخامته عرف انه امام الصدر الاعظم ابن سينا فقال: لقد اخترت هذه المهنة لكيلا اكون مثلك محكوما لشخص آخر، فالنزاحة مع الحرية خير

عندي من كل الذي عندك وعند رؤساء العالم، لانك محكوم وتابع. يقال ان ابن سينا قد غرق في عرفه خجلا، لأنه سمع منطقاً لا يرد، فتلك هي الحقيقة الواقعة. فما معنى هذا في المنطق الحيواني الأرضي؟ كيف يتخلى احد عن الدجاج والرز والخدم والحشم والخيل والكبكبة وما الى ذلك، ويختار النزاحة، ثم يقول الحرية والتحرر؟ وهل الحرية والتحرر من الامور المحسة الملموسة؟ كلا. ولكن للحرية في ضمير الانسان الحي من القيمة والمنزلة بحيث أنَّه يفضل مهنة النزاحة معها على الأسر والعبودية.

حسن، هذه واحدة من القيم، وهي من القيم العظيمة ايضا. ولكن المرء يلتفت احيانا فيجد أنَّ هذه القيمة قد نسيت كليا في بعض المجتمعات، وفي احيان اخرى نجد أنَّها تثور وتتيقظ في نفوس مجتمعات اخرى. وقد تتيقظ الى درجة لا يرى الانسان معها في الانسانية سوى الحرية، بحيث أنّه يهمل جميع القيم الأخرى، ويقول: الانسانية هي الحرية، ولا قيمة لغير الحرية، ويكاد يمحو القيم الاخرى من الوجود ليركز كل المفاهيم في الحرية وحدها، متناسيا ان من القيم الاخرى العدالة، والحكمة، والمعرفة . . .

قد ترون احيانا فرقة من الناس تتكىء على العشق، كما هي الحال عند المتصوفة ورجال العرفان وفي غزلياتهم. فقيمة

الانسان عند هؤلاء هي العشق، وكل القيم الأخرى، حتى العقل، لم يعد له مكان عندهم، بل لتمسكهم بالعشق والحب، حصلت عندهم حالة الوقوف ضد العقل ومحاربته وهذا حافظ يقول:

عارف ازپرتوى رازنهانى دانست
گوهر هركس از اين لعل توانى دانست
شرح مجموعة گل مرغ سحر داند وبس
كه نه هركو ورقى خواند معانى دانست
أى كه در دفتر عقل آيت عشق آموزى
ترسم اين نكته بتحقيق ندانى دانست

(قد عرف «العارف» من اشعة السر الخفي
وتعرف انت جوهر المرء من العقيق الأحمر هذا)
(لا يعرف معنى مجموعة الورود غير طائر الفجر
فما كل من يقرأ ورقة يعرف معناها)
(يا من تدرس في دفتر العقل آية العشق
اخشى ان تعرف انك حقا لا تعرفها)

والمقصود بمجموعة الورد الذات المستجمعة لجميع الكمالات، والخطاب موجه في آخره الى ابن سينا على ما جاء في اواخر «الاشارات» عن العشق. وعليه، فعند هؤلاء يكون الانسان والانسانية هو العشق، اما العقل فلكونه عقالا وعقبة،

فلا يعتبر من القيم بل يكون مدانا ومحكوما عليه.

وفي احيـان اخرى يـأتي العقل والفكـر كقيمة من القيم، فيقال: ما هذا الكلام عن العشق، إنْ هو الا خيالات واوهام. من ذلك اقوال ابن سينا. فعندما يدور الحديث عن هذه الامور، يقول هذه اشبـه بالخيـالات ويجب الوقـوف بوجههـا بركـوب العقل. الخلاصة هي ان هذه انواع مختلفة من القيم الانسانية.

العقـل ـ الحب ـ المحبة ـ العـدالة ـ الخـدمة ـ العبـادة ـ الحرية وغيرها من القيم. اذن، فمن ترى يكون الانسان الكامل؟ أهو العابد المحض، أو الزاهد المحض، أو المجاهد المحض، أو الحر المحض، أو العاشق المحض، أو العاقل المحض؟ من منهم؟ ابدا، ليس أي من هؤلاء هو الانسان الكامل. الانسان الكـامل هـو ذاك الذي تـربت فيه كـل هذه القيم، ونمت الى حدودها العليا، في انسجام وتناسب.

وهذا علي (ع) ذلك الانسان الكامل، وهذا كتاب عليّ، نهج البلاغة ـ على الرغم من أنَّ هذا الكتاب يضم بين دفتيه جانبا من خطب الامام علي، حسبما ارتأى السيد الرضي ان يختارها من روائع الخطب ذوات الجانب الادبي، بحيث لم يزد ما ضمه نهج البلاغة على ٢٢٩ خطبة، بينما يقول المسعودي، صاحب مروج الذهب، الذي عاش قبل السيد الرضي بمئة سنة، يقول

في كتابه ان ما بين ايدي الناس من خطب علي (ع) يبلغ حوالي ٤٨٠ خطبة.

فكيف هو «نهج البلاغة» هذا؟ انك لتجد في نهج البلاغة كل ألوان العناصر مجموعة في مكان واحد. فمرة تقرأ نهج البلاغة فتحسب ان ابن سينا يتكلم، ومرة اخرى تطالع نهج البلاغة فتخال مولوي أو محي الدين العربي يتحدث، ومرة اخرى تطالع نهج البلاغة فتقول انه رجل حماسة وأنَّ فردوسي هو الذي يتحدث، أو انه فلان من رواد الحرية الذين لا يعنون الا بالحرية، وفي غير ذلك تقرأ نهج البلاغة فتحسب المتحدث عابداً زاهداً يتعبد في صومعة كالرهبان. فكل القيم الانسانية هناك وبما ان اللسان مرآة النفس، فلتنظروا ما أعظم علياً، وما أصغرنا نحن.

في السابق، حتى ما قبل حوالي الخمسين سنة، عندما كانت عنايتنا تنصب على الزهد والتعبد كان الخطباء الذين يرقون المنابر للوعظ يقرأون نهج البلاغة، فما الذي كانوا يقرأونه منه؟ لم يكن هناك اكثر من عشرة او عشرين خطبة هي خطب الزهد والوعظ في نهج البلاغة، مثل:

«أيّها النّاسُ، إنَّمـاَ الدُّنْيـا دَارُ مَجازٍ، والْآخِـرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمرِّكُمْ لِمَقِرِّكُمْ، ولَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ

أَسْـرَارَكُمْ، وأَخْرَجُـوا مِنَ الدُّنْيَـا قُلُوبكُمْ قَبْـلَ أنْ تَخْـرُجَ مِنَهـا أَبْدَانكمْ، فَعَنْهَا اخْتَبَرْتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ»[١٥].

ولم يكن لباقي خطب نهج البلاغة ذكر، لأنها لم تكن لتجذب المجتمع الذي كان منجذبا نحو عدد من القيم هي التي دفعت بالخطباء الى الاقتصار على نوع معين من خطب نهج البلاغة. ولربما انقضت مئة سنة بغير ان يظهر رجل يقرأ للناس عهد الامام امير المؤمنين لمالك الاشتر، ذلك العهد الذي يعتبر ثروة من القوانين الاجتماعية والسياسية. ان المجتمع نفسه لم تكن فيه هذه الروح من النشاط والتحرك. ففي الموضع الذي يقول فيه الامام انه قد سمع النبي الكريم يكرر في كل مناسبة قوله: «لَنْ تُقَدَّسَ أمّةٌ حَتّىٰ يُؤْخَذَ لِلْضَعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوَيِ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ»[١٦] فان المجتمع الاسلامي لما قبل خمسين سنة لم يكن له من الادراك ما يعينه على فهم هذه العبارة ومعرفة معناها، لأنه كان مجتمعا ذا قيمة واحدة او اثنين. انه كلام علي الذي يضم جميع القيم الانسانية. انني لا اريد ان اقدس مجتمعنا، ولكن هناك، لحسن الحظ، بعض قيم اخرى قد ظهرت فيه، انما الذي اخشاه هو ان تتحول هذه القيم ايضا الى طرف واحد،

---

١٥ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٣.

١٦ ـ نهج البلاغة، الرسالة رقم٥٣.

وان تكون سببا في محو قيم أخرى. ينبغي ألا يكون هذا. اننا اذا كنا نريد ان نتخذ من علي مثالا واماما لنا، اي من انسان كامل، الانسان المتعادل، الانسان الذي تربت ونمت فيه جميع القيم الانسانية نمواً متسعاً ومتجانساً ومتناسباً الانسان الذي اذا جاء الليل لا يبلغ شأوه اي عارف عابد، بتلك الروح العبادية الجاذبة نحو الله، والمرفرفة في علياته، المنطلقة نحوه، والتي كانت تضطرم فيه اضطراما. لعلك تعلم انه عندما يشتد حماس المرء ويحمى الوطيس، فقد يقطع يده بسكين بغير ان يحس بذلك لشدة انغماره في المعركة وانشداهه بها. هكذا كان علي في العبادة، اذ كان على درجة من الانهماك والانغمار، والعشق الآلهي على درجة من الاشتعال حتى لكأنه ليس في هذا العالم. وهو نفسه يصف بعض الجماعات بذلك فيقول:

«هَجَمَ بِهِمْ الْعِلْمُ عَلىٰ حَقِيقَةِ الْبَصِيْرَةِ، وبَاْشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، واسْتَلَانُوا مَا اسْتَعْوَرَهُ الْمُتْرَفُونَ وأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الجّاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بالْمَحَلِ الأَعْلىٰ»(١٧).

إنَّه مع الناس وليس مع الناس. عندما يكون مع الناس تكون روحه مرتبطة بالمحل الأعلى. وعندما يكون في حال العبادة

---

١٧ ـ نهج البلاغة، الحكمة رقم ١٤٧.

يستخرجون السهم من بدنه بغير ان يحس بما يفعلون، لأنه غارق في العبادة ومنجذب نحو الله. وانه ليبكي في محـراب العبادة ويتململ تململ السليم بما لم يشهد مثله احد. هكذا هو حاله في الليل. وفي النهار، لكأن هذا الانسان غير ذاك. فهو اذ يجالس اصحابه يكون متفتح الوجه، بشوشاً، باسماً، بخلاف زهّادنـا وعبّادنا، فهم اذا انخرطوا في سلك الزهد والعبادة ظنوا ان ذلك يستوجب التقطيب والعبوس، وكأنهم يمنون على الناس بذلك.

يأتي علي الى اصحابه ويجلس معهم فرحاً ضاحكاً، حتى انهم يقـولون ان من جملة اوصـافه: انـه كان يـأتينا بمـلامـح مبتهجة. لقد كان علي جميل الصحبة، رقيق المجلس، حتى انه كان كثير المرح بشوشاً.

عندما كان عمرو بن العاص يذم علياً على المنابـر، كان يقول انه لا ينفع في الخلافة، لانه ضاحك الوجه، والخـلافة تستلزم العبوس حتى يخافه الناس. وهذا مذكور في نهج البلاغة على لسانه هو:

«عَجَباً لابْنِ النّابِغَةِ يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشّامِ أنَّ فيَّ دُعَابَةً وأنّي امْرُؤٌ تَلْعَابَةٌ. أُعَافِسُ وأُمَارِسُ لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً ونَطَقَ آثِماً»[١٨].

ولقد قيل عنه:

---

١٨ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ٨٤.

هُـوَ الْـبَـكّـاءُ فـي الْـمِـحْـرابِ لَـيْـلاً
هُـوَ الـضّـحّـاكُ إنْ جَـدَّ الـضِّـرابُ[19]

وهذا القرآن يريد مثل هذا:

﴿إنَّ نَاشِئَةَ اللّيلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وأَقْوَمُ قِيلاً . إنَّ لَكَ في النَّهَارِ سَبْحَاً طَوِيلاً﴾[20].

دع الليل للعبادة والنهار للحياة والاندماج في المجتمع. أو قل انه في الليل شخصية وفي النهار شخصية. هذا هو علي في ليله وفي نهاره. انه جامع الاضداد. ومنذ اكثر من الف سنة وهو معروف بهذه الصفة، حتى أنَّ السيد الرضي يقول في تقديمه نهج البلاغة: هذا ما كان يثير عجب اصحابي اذا جرنا الحديث الى الجوانب المتنوعة في كلام علي. فحيثما يلج المرء في اقسام كلامه يجد عوالم جديدة وهو يتنقل من كلام الى كلام. فمرة هو في عالم العباد، ومرة في عالم الزهاد، ومرة في عالم الفلاسفة، ومرة في عالم المتصوفة أو العرفان، ومرة في عالم الجند والجيش، ومرة في عالم الحكام العدول، ومرة في عالم القضاة، ومرة في عالم الفتيا، وهكذا يجد المرء نفسه يسير مع علي في عوالم مختلفة، وان له وجودا في كل عالم، وما من عالم

---

١٩ ـ الغدير، ج٤ص٢٥.

٢٠ ـ سورة المزمل، الآيتان ٦و٧.

من عوالم البشر غاب عنه علي.

وفي هذا يقول صفي الدين الحلي في القرن الثامن الهجري:

جمعت في صفاتك الاضداد
ولهذا عزت لك الانداد

لقد تجمعت فيك الاضداد، فانت حاكم وانت حكيم، وقلما ائتلف هذان. وانت حليم غاية الحلم، وانت شجاع غاية الشجاعة. وانت تسفك الدماء غاية السفك حيثما لابد من سفك الدماء القذرة. وانت ناسك وعابد غاية النسك والعبادة. وانت فقير وجواد، فانت لا تملك شيئا ولكن ما ان يأتيك شيء حتى تهبه للمعوزين.

ويمضي صفي الدين الحلي في وصفه علياً، حتى يقول:

خلق يخجل النسيم من اللطف
وبعث يذوب منه الجماد.

فما ألطف من انسان روحه أرق من النسيم وهو بهذه القدرة والصلابة والقوة، فما اعجبك من انسان!

اذن فالانسان الكامل هو ذلك الذي بلغ مرحلة البطولة في جميع القيم الانسانية. انه بطل في جميع الميادين الانسانية، وما أعظم الدرس الذي يجب أنْ نتعلمه. إنَّ علينا ان نتعلم هذا

الدرس حتى لا نخطىء فنتبنى واحدة فقط من القيم ونهمل سائر القيم الأخرى. اننا بالطبع لا نستطيع ان نكون ابطالاً في جميع القيم، ولكن علينا، على قدر الامكان، ان نلتزم جميع القيم في وقت واحد. واذا لم نبلغ مرحلة الانسان الكامل، فلا أقل من ان نبلغ مرحلة الانسان المتعادل، وعندئذ نكون في صورة انسان مسلم حقا وفي جميع الميادين. هذا، اذن، هو الانسان الكامل، وذلك هو نموذج من الانسان الكامل.

ماهية الانسان:

من المعروف ان هناك اختلافات في وجهات النظر بخصوص حقيقة الانسان وماهيته، ولكن هناك نظرتان رئيستان متقابلتان. الأولى نظرية الروحيين، والثانية نظرية الماديين.

ففي نظر الروحيين، الانسان حقيقة مركبة من الجسم والروح، وان الروح خالدة فلا تموت بموت الانسان ولا تفنى. وكما نعرف، فان منطق الدين، وعلى الاخص النصوص الاسلامية، تؤدي الى ذلك.

والنظرية المادية تقول: كلا، الانسان ليس سوى هذا الجسم واجهزته، وانه يتلاشى ويزول من الوجود بالموت، وان تلاشي البدن يعني تلاشي شخصية الانسان.

وعلى الرغم من وجود هذا الاختلاف الكبير بين هاتين

النظريتين من حيث ماهية الانسان وحقيقته، فثمة مسألة اخرى، وان تكن مـرتبطة بمـا سبق. فانهـا متفق عليها عنـداصحـاب النظريتين، وهي ان هناك عددا من الأمور التي، وان لم تكن من المادة والماديات، ويمكن اعتبارهـا من المعنويـات فانهـا من المعاني التي تهب الانسان قيمة وشخصية، وان انسانية الانسان تعتمد على تلك الأمور. أي اذا جرد الانسان من تلك الامور، فلن يكون بينه وبين الحيوان اي فرق.

ان انسـانية الانسـان ليست ببنائـه الجسمي، اذ لا يمكن القول ان كل من كان له رأس واذنان واظافر عريضة، ويمشي مستوي القامة، ويتكلم، فهو انسان. ومهما يكن هذا المخلوق، فانه كما قال سعدي الشيرازي:

تـن آدمی شـــریـف است بــه جـان آدمـیت
نــه همین لبــاس زیبــا است نشــان آدمیت
اگــراد من بــه جشم است ودهــان وگــوش وبینی
چــه میـان نـقش دیــوار ومیــان آدمیـت

(جسـد الآدمي شـريف بـروح الانسـانيـة
فاللباس الجميل هذا ليس عـلامة الانسـانية)
(ولــو كــان الادمي بــالعين والـفم والاذن والانف
فمـا الفرق بين رسم على الجـدار والانسان)

ان من الجاري على ألسنتنا كثيرا «كن آدميا!» وهناك مثل

بالفارسية يقول: «ما أسهل ان يصبح المرء ملائياً، وما أصعب ان يكون انسانا!» وهل آدمية الانسان بما يرتدي؟ الناس كلهم من آدم، فما الفرق؟ كلا، ان الانسان بمجموعة من الصفات والاخلاق والمعاني الأخرى، فهي التي تجعل الانسان انساناً وتضفي عليه القيمة والشخصية. هنالك اليوم مصطلح هو الذي يعطي الفرد قيمته وشخصيته، ولولاه لما كان بين الانسان والحيوان فرق. ذلك المصطلح هو «القيم الانسانية».

ان الانحرافات التي تصيب الفرد أو المجتمع على نوعين: النوع الاول هو تلك الانحرافات التي تقف ضد القيم وتناوئها، مثل وقوف الظلم في وجه العدل، والحجر والاستعباد ضد الحرية، وعدم معرفة الله واللاابالية ضد عبادة الله، والتبلد، والسفه والحمق ضد العقل والفهم والحكمة. ولكن قد لا يكون اكثر انحرافات البشرية بهذا الشكل من وقوف اعداء القيم ضد القيم، ففي هذه الحالة تكون هزيمة اعداء القيم حتمية، انما اغلب انحرافات البشر اشبه بمد البحر وجزره، فقد تنمو احيانا احدى القيم الانسانية نموا سرطانيا تبتلع سائر القيم الاخرى. ان الزهد والتقوى من القيم الانسانية ومعاييرها، ولكن قد يحدث ان تكون مغالاة المجتمع فيهما الى درجة ان تنمحي كل القيم الاخرى، ويظل الزهد هو السائد وهو كل شيء. فتكون الحالة كمن ينمو انفه ويتضخم دون سائر اعضائه الاخرى.

يمكن تلخيص القيم الانسانية عموما تحت عنوان واحد، وذلك ايضا يتشعب الى فروع، وهو ما ورد في مصطلحات المتصوفة عندنا، بل حتى قبل ان يدخل في مصطلحات العلماء والعرفانيين، وقد جاء ايضا في مصطلحات العلماء المحدثين وفي النصوص الاسلامية، وهو القول بأن معيار الانسانية الاصيل هو ما يعبر عنه بالتألم، الاحساس بالألم. ان الفرق بين الانسان والحيوان هو ان الانسان يتألم، ان فيه آلاما. والذي لا انسانية فيه يريد ان يكون حيواناً، او مجرد انسان ذي رأس واذنين وفاقداً الروح الانسانية.

علينا اولا ان نتحدث عن الألم. ان اول ما يتبادر الى الذهن هو ان الألم تجب ازالته، لا ان نجعله معياراً. ولكن الأمر ليس كذلك. علينا اولا معرفة منشأ الألم: أهو من مرض؟ أهو من جرح؟ والألم، في الوقت الذي يزعج فيه الانسان، فانه ينبه الانسان ويوقظه. حتى هذه الآلام العضوية، فهي لا يمكن ان تحدث بغير سبب. ان الألم ينبه الى وجود نقص واختلال في مكان ما من الجسم، مثل مقياس الحرارة في السيارة حيث ان ارتفاعها يدل على قلة الماء في جهاز التبريد مثلا، وانخفاضها يدل على ان كل شيء طبيعي. ولولا شعور الانسان بالألم في جسمه او رأسه لما عرف ان هناك اختلالاً فيهما، ولما راح يبحث عن علاج. اذن فالألم نعمة واحساس ومعرفة وتيقظ. فالمعرفة

واليقظة امران مطلوبان، لكي يدرك الانسان ما ينقصه.

ومن تزداد آلامه يزداد تيقظاً ومعرفة بالآخرين. ومن يضعف احساسه بالألم يضعف شعوره ويقل ادراكه. الاحساس بالألم يساوي الادراك. اذا كان الانسان دائم الراحة وبغير ألم أولا يحس بالألم، فعليه ان يبقى جاهلاً وغبياً بغير ألم. واذا شاء ان يكون ذكياً يقظاً فلا بد ان يكون ذا احساس بالألم. فايهما يفضل الانسان: أن يكون ذكياً يقظاً مع الشعور بالألم، بالعكس، غبياً أبله مع انعدام الاحساس بالألم؟ ان اختيار الأول يعني ان الاحساس بالألم مع الفطنة والادراك أرجح من الاستكانة الى الراحة والدعة مع الجهل وانعدام الاحساس والفطنة.

يقال في المثل أن يكون المرء سقراطاً مع النحافة خير من ان يكون خنزيراً سميناً. أي ان يكون الانسان مثل سقراط علما ومعرفة مع الفقر والحرمان خير من ان يكون مثل الخنزير الذي يهيئون له ما يشتهي من الطعام والشراب والراحة، بغير ان يدرك شيئاً او يحس بألم الحرمان. من هنا ندرك سبب شكوى الادباء من الأدراك والشعراء من العقل، فكثيراً ما يتمنى الشعراء لو لم يكن لهم عقل وادراك. طبيعي ان يكون للتشكي من العقل دوافع مختلفة، كالمتصوفة الذين تختلف وجهة نظرهم ولكن اكثر الشاكين يقولون ان التعقل والذكاء والاحساس تسلب الانسان راحته.

هذا احد الشعراء يقول:

عـاقـل مبـاش تـاغم ديـوانگـان خـوری

ديـوانـه بـاش تـاغم تـو عـاقـلان خـورنـد

(لا تكن عـاقـلا فتحمـل هم الـمجـانـين

كن مجنـونـا ليـحمـل هـمـك العـقـلاء)

فالشاعر يفضل الراحة مع الجنون على تحمل الهم مع العقل. الا ان هذا بعيد عن الصواب فالانسان الذي يصل الى مقام الانسانية ويدرك قيمة الادراك والشعور، ويفهم معنى التألم، لا يمكن ان يتمنى الجنون والتجرد من العقل، بل يؤيد، الحديث النبوي الشريف:

«صَدِيقُ كُلِّ امْرَءٍ عَقْلُهُ وَعَدُوُهْ جَهْلُهُ»[٢١].

ان من يقول عدوي هو العقل والذكاء، يظهر انه لا يحس ابدا بالتعاسة والشقاء الناشئين عن الجهل والا لما قال ما قال، اذ ان الأمر ليس كذلك. وعليه فان الألم والاحساس بالألم من الحسنات، الا اذا لم يكن هناك ما يوجب الألم والتألم، وان لا يحس الانسان بالألم لعدم وجود الألم نفسه، فهذا بالطبع، خير من وجود الألم. ولكن ان يكون هناك ما يوجب الألم، ان يكون

---

٢١ ـ وسائل الشيعة، الرواية٤ ، الباب ٨ من ابواب جهاد النفس ج١١ص١٦١ عن الامام الثامن (ع) ـ غرر الحكم، حرف الصاد.

الاختلال موجـودا، ان يكون هنـاك سبب للألم، ثم لا يحس الانسان به، فذلك هو سوء الحظ، والتعاسة، والفقر. وهكذا في الامراض الجسمية، فالمرض الذي لا يصاحبه الألم والاحساس بالألـم يكون مميتاً، وذلك لأنـه في البدايـة لا يكون مصحـوباً بالألم، والا لأمكن ان يعالج منذ البداية عند الاحساس بالألم. ان خطر هذه الامراض يكون من انها تفد بغير اخبار، بغير ألم. وعليه فهذا لا يكون من القيم. القيم الانسانية هي الألم والتألم. ولكن الألم شيء سيء. ما هو ألم الانسـان؟ إن ألـم الصداع الذي يصيب الانسان ليس ذلك الألم الذي يختص بالانسانية، فالحيوان قد يصاب بالصداع، وقد يكون الألم في يد الانسان، او في رجله. هذه آلام مشتركة. اذن، فالذين يتحدثون عن ألم الانسـان، وان الانسان يتـألم، لا يقصدون تلك الآلام، انهم يقصدون الى شيء آخر، انه ذلك الألم الذي يعتبر قيمة القيم.

المتصوفة عندنا يرون ان ألم الانسان، ذلـك الألم الذي يقدسونه ويقولون انه من خصائص الانسان بل ان الانسان لذلك يفضل الملائكة، لأن الملائكة لا يتألمون، والانسان يتألم. ان الألم الذي يقول به هؤلاء هو ألم البحث عن الله. أي ان وجهة نظرهم هذه ـ وهي ليست في الحقيقة وجهة نظرهم لانها في هذه الحدود وجهة نظر الاسلام ـ تعني ان الانسان حقيقة آتيـة من النفخـة الآلهية، من عـالم آخر، لـذلك فـانه لا يتجـانس كل

التجانس مع ما في هذه الدنيا من الاشياء الموجودة في الطبيعية ان الانسان في هذا العالم يحس بالغربة والتغرب، وبأنه لا ينسجم مع جميع كائنات هذا العالم، فكل شيء فانٍ، كل شيء متغير، وما من شيء جدير بالتعلق به. الا ان في الانسان تطلع خالد يؤرقه. هذا هو الألم الذي يشد الانسان نحو البحث عما يعبده، يبحث عن الله ليبثه شجونه ويناجيه ويقترب منه، يقترب من اصله. لاحظ هذه الامثال التي يضربها المتصوفون بهذا الخصوص. فمرة يضربون مثلا بالببغاء التي يأتون بها من غابات الهند، مثلا، ويحبسونها في قفص. فهذه الببغاء دائمة التعاسة ودائمة التمني ان يتحطم هذا القفص لتطير الى حيث مكانها الاصلي. ومرة اخرى يضربون مثلا بالطائر الذي بعد عن عشه، ومن اروع الامثلة ذلك المثل الذي يضربه مولوي في مطلع ديوانه (مثنوي)، فهو يشبه الانسان بالناي الذي اقتطع من مزرعة القصب، ولذلك فهو دائم النواح على ألم الفراق، انه ينوح لأنه قد فصل بينه وبين اصله.

ومرة يشبهونه بالفيل الذي يأتون به من الهند، ولذلك يجب دائما ان يَخِزوه، والا فانه سيظل يفكر في وطنه الهند، فيقولون ان الفيل هو وحده الذي يرى الهند في نومه، لأنه من الهند أصلا. اما الحمار فلا يرى الهند في منامه لانه لم يتغرب عن الهند، فهو ليس من هناك. أي ان الانسان هو الذي يتطلع دائما

الى العالم الآخر، وهذا هو الألم الصوفي، التألم من اجل العودة الى الله والرجوع اليه، ويتألم من ذلك فيناجيه طالباً وصاله.

ما أجمل ما يقوله الامام علي (ع) وهو يأخذ بيد كميل اذ هما يسيران في الصحراء.، يقول كميل: «فلما أصحر تنفس الصعداء وقال: يـاَ كُمَيْلُ إنَّ هٰـذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَـةٌ، فَخَيْـرُهَـا أَوْعَاها . . .» ويطلب منه ان يعي ما يقول، فيقسم الناس اقساما ثلاثة، حتى يصل الى حيث يأسف لعدم وجود من يكتم السر حتى يفصح له عما في داخله من ألم وتألم. ثم يقول إنَّ الأمر ليس هكـذا، فهناك دائمـا امثال اولئـك «اللّهُمَّ بَلَىٰ، لاَ تَخْلُو الْأَرَضَ مِنْ قَائِم لِلّهِ بِحُجَّةٍ، امَّا ظَاهِـراً مَشْهُوداً، وامّـا خَائِفـاً مَغْمُوراً، لِئَلاّ تَبْطُلُ حُجَجُ اللّهِ وَبَيِّنـاتُهُ، وَكَمْ ذَاْ وَأَيْنَ أُولَئِـكَ، أُولئِكَ وَاللّهِ الأَقَلّوْنَ عَدَدَاً وَالأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللّهِ قَدَراً، يَحْفظُ اللّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّناتِهِ حَتّىٰ يُودعُوهَا نَظَرائِهِمْ وَيَزْرَعوُها في قُلُوبِ أشبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمْ الْعِلْمُ عَلىٰ حَقِيقَةِ الْبَصِيرةِ»[٢٢].

وعلى ذلك فهم قد بلغوا مقام اليقين الكامل واتصلوا بروح اليقين الكامل والتصقوا بها، فلم يعد هناك ما يفصلهم عن روح اليقين. ان ما يكون صعباً على اهل الطرب وعباد المادة، لَيِّن طَيِّع بين ايديهم ان ما يخشاها اولئك من الخلوة بـالله، يكون

---

٢٢ ـ نهج البلاغة، الكلام رقم ١٤٧.

لهؤلاء مدعاة انسهم. انهم يسايرون الناس في هذه الدنيا، ولكن بارواح منجذبة نحو الأعلى الأعلى، وفي الوقت الذي هم فيه في هذه الدنيا فانهم ليسوا فيها، وفي الوقت الذي هم فيه في هذه الدنيا، هم في دنيا اخرى.

ان آلام علي، آلامه العرفانية، وآلامه العبادية، ومناجاته، امور أشد ما تكون وضوحا بحيث ان امر العبادة يصل به الى حيث يغشى عليه، مندمجا بكل جوارحه في معشوقه، فلا يحس بما يجري من حوله، وحتى اذا استخرجوا شوكة من جسمه. هذا هو ألم الانسان، ألم البعد من الله، واشتياق القرب منه، والتحرك نحوه، وما لم يصل الانسان الى حيث الله، فلن تفارقه هذه الحالة من الاضطراب والتشوق، بل تلازمه دائما، واذا ما شغل المرء نفسه بهذا وذاك، فان حقيقة الامر هو انه مشغول بأمر آخر. والقرآن يعبر عن ذلك بقوله:

﴿ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ القلُوبُ﴾.

هذا هو ألم الانسان الذي لا يهدأ الا بذكر الله، ولا يأنس الا بالله، وهذا هو المقصود فيما ينوه به رجال العرفان والتصوف، فهم لا يعنون بالام الانسان الأخرى، أو ان عنايتهم بها أقل.

ثمة قصة رمزية يرويها مولوي، فيقول: كان رجل دائم المناجاة والحديث مع الله، ولم يكن يفتر لحظة عن ذكر الله.

فظهر له الشيطان مرة وراح يوسوس له حتى لم يعد هذا الرجل ينطق بحرف ابدا. لقد جاءه يسأله: ايها الرجل، ما اكثر ما قلت الله الله الله، وما اكثر ما كنت تقوم بالاسحار وتنادي يا الله يا الله يا الله، ولكنك مع كل هذا الألم والعذاب لم تسمع كلمة لبيك ولو مرة واحدة. لو انك تضرعت هكذا عند أي بيت من البيوت، لكان ثمة من يرد عليك مرة واحدة في الأقل. فتنبه الرجل الى أنّ هذا الكلام منطقي، لذلك اغلق فمه ولم يعد يذكر الله. ثم رأى في المنام ان هاتفا يقول: لماذا تركت مناجاتك مع الله. فقال: لقد ناجيت كثيراً وتحملت العذاب والألم ولكن لم يحدث لمرة واحدة ان اسمع جواباً. فقال الهاتف: انا مأمور من قبل الله ان ارد لك الجواب ان هذا الألم الذي أثرناه في قلبك، وهذه الحرقة التي تحس بها، وهذا العشق والشوق اللذين يسهرانك، هذا هو جواب الله على ندائك.

فهذا الألم خير من ملك الدنيا. وقد جاء في دعاء كميل لعلي (ع): «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء». ولهذا قيل ان الدعاء للانسان هدف ووسيلة، أي الدعاء ليس دائما للاستجابة، فالدعاء اذا لم يتحقق فهو قد استجيب له، لأنه هو المطلوب لذاته.

هناك جمع أخر ممن يرون ان ألم الانسان اثمن القيم، قد انتبهوا الى أمر آخر، وهو ألم الانسان نحو خلق الله. وليس ألم

الانسان نحو الله، فيقولون ان معيار انسانية الانسان هو أنْ يتألم الانسان للآخرين، أي ان المزعجات التي لا تخصه ولا هي متوجهة لشخصه، بل هي متوجهة نحو الآخرين تثير فيه الألم، فهو يحمل هم الآخرين ويغتم لهم. فهو كما يقول سعدي:

من از بينوائى نيم رنگ زرد
غم بينوايان رخم زرد كرد

(انني لست مصفر الوجه لتعاستي
انما من غم التعساء قد اصفر لوني)

وهذا صحيح حصوله في الانسان، ان يتألم الانسان للآخرين، وان يحمل همومهم، بل لا تنام عينه بسبب جوع الآخرين، وجوعه أهون عنده من جوع جاره، ويرى الشوكة في قدم غيره كالقذى في عينه هو. هذا هو ألم الانسان، الألم الذي يمنح الانسان شخصيته وقيمته، وهو اصل كل القيم الانسانية فكل شيء يرجع الى الشعور بالمسؤولية نحو الآخرين يعد من الانسانية، وما لم يكن كذلك فلا يعد من الانسانية في شيء. فآلام الانسان تكون لآلام الناس.

هذا ما نلحظه بكل دقة في علي (ع)، وعلى الاخص في آخر رمضان مرّ عليه، فلقد كان رمضاناً مختلفاً بالنسبة اليه، ويحمل له صفاءاً مغايراً، أما بالنسبة لأهل بيته، فقد كان مصحوباً منذ اول يوم من ايامه بالقلق والترقب والاضطراب،

لأنهم رأوا سلوك علي في رمضان مختلفا عمـا كان عليـه فيما مضى. واني لاذكر لكم واحدة من بطولاته النموذجة.

يقول عليه السلام:

«انّه لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(٢٣) علمت أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله (ص) بين أظهرنا. فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي أخبرك الله تعالى بها؟ فقال: يا عليّ، انّ أُمّتي سيفتنون من بعدي. فقلت: يا رسول الله، أو ليس قد قلت لي يوم احد حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عني الشهادة، فشق ذلك عليٍّ، فقلت لي: أبشر، فانّ الشّهادة من ورائك؟ فقال لي: إنّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إذَنْ؟ فقلت يا رسـول الله، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَـوَاطِنِ الصَّبْـرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَـوَاطِنِ البُشْرَىٰ والشُّكْرِ»(٢٤).

فكان لآخر رمضان عند علي معنى الصفاء والراحة، وعند اهل بيته معنى الاضطراب والتوقع، اثر ما كان النبي الكريم قد اشار به من علائم وامارات كان علي نفسه يعرفها، وقد يصرح بشيء منهـا، فيـزداد قلق اهـل البيت واضـطراب الصحـاب

---

٢٣ ـ سورة العنكبوت، الآية ١و٢.

٢٤ ـ نهج البلاغة ص٢٢٠.

المقربين. كانت تصدر عنه اقوال غريبة. في شهر رمضان هذا كان في كل ليلة مدعوا في بيته، ولكنه كان قليل الأكل. كان الولدان يحسّان باللهفة على ابيهما، ويسَألانه: يا أبة، انك لقليل الطعام، فيقول: اريد ان ألقى ربي بمعدة جائعة. انهما يدركان ان اباهما ينتظر شيئاً، شيئاً قريب الوقوع. وقد يتطلع الى السماء احياناً، ويهمهم قائلاً: صحّ ما اخبرني به حبيبي رسول الله، انه لا يكذب، لقد ازف الموعد، لقد قرب.

كانت الليلة التاسعة عشرة من رمضان، وقد اعتاد الحسنان ان يظلا في خدمة ابيهما جانبا من الليل. في تلك الليلة رجع الحسن (ع) الى بيته. وكان لعلي مصلى معين، وكان قد اعتاد ان يختلي فيه، بعد فراغه من امور الناس، فيناجي ربّه. وقبل ان يطلع الصبح كان الحسن (ع) قد عاد الى بيت ابيه. كان الامام علي (ع) يولي ابناءه من فاطمة الزهراء (ع) عناية خاصة احتراماً لامهم. واذ رأى الحسن قال له: ملكتني عيني وأنا جالس فسنح لي رسول الله (ص) فقلت: يا رسول الله، فاذا لقيت من أمتك من الأَوَدِ والْلَدَدِ! فقال: «أدْعُ عَلَيْهِمْ. فقلت: أَبْدَلَني اللّهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وابدلهم بِي شَراً لَهُمْ مِنّي»[٢٥].

الواقع انه لأمر عجيب، فاختلاف الناس مع علي، وعدم

---

٢٥ ـ نهج البلاغة، ص٩٩.

قبولهم السير على المحجة التي بسطها امامهم، والآلام التي سببوها له، بما في ذلك نقض اصحاب عائشة بيعتهم له، ومعاوية بمكره وجرائمه فقد كان معاوية من دهاة العرب، وكان يعرف ما يؤلم علياً فيؤذيه فيه، واخيراً قضية الخوارج، اولئك المتزمتين الذين كفّروا علياً عن ايمان وعقيدة وفسّقوه، ولشد ما آذوه. في الحقيقة عندما يرى المرء المصائب التي تحمّلها الامام علي تنتابه الحيرة، كيف تحمّلها وهي مما تنؤ بثقلها الجبال؟ لمن يشكو آلامه غير رسول الله الذي يأتيه في النوم، فينفث له ما بقلبه.

يخرج الحسن (ع) من عند ابيه، فيتلقاه بعض البط صائحات، فيقول الامام: «دَعُوهُنَّ فانَّهُنَّ صَوَائِحُ تَتْبَعُهَا نَوَائِحُ»[٢٦]. وجاء الأولاد يمنعون أباهم من الذهاب الى المسجد، وليرسل من يؤم الناس غيره. فيرضى بذلك اول الأمر ويطلب ارسال ابن اخته جعدة بن حبيرة ليصلي بالناس الجماعة، ولكنه ينثني عن ذلك قائلا انه سيذهب بنفسه. فقالوا: فليصحبك بعضنا، فرفض. لقد كانت ليلة لا كالليالي، فقد قال عنها:

«وَمَا كُنْتُ إلا كَقَارِبٍ وَرِدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ»[٢٧].

---

٢٦ ـ كشف الغمة، ج١ص٤٣٧ ومنتهى الآمال ص١٧٢ حالات امير المؤمنين (ع).

٢٧ ـ نهج البلاغة، ص٣٧٩.

وهو يرى ان الضربة التي تلقاها من ابن ملجم كـالعاشق الذي وصل معشوقه، او كالذي يبلغ بئر ماء في ليلة ظلماء ليحط عندها رحاله.

نعم، رفض ان يذهب غيره للصلاة في المسجد. اللّه اعلم مدى هيجانه حينذاك، فيقول:

«مَـا زِلْتُ اَفْحَصُ عَنْ مَكْنـوُنِ هِـذَا الْأَمْـرِ وَأَبَىٰ اللّهُ إلاّ إِخْفَاءَه». وخرج الى المسجـد. كان الصبـح يقترب، وصعـد المئذنة، وراح ينـادي «الله اكبر، الله اكبـر» وكأنـه يودع خيط الفجر، ويسأله ان كان قد طلع يوماً وكانت عين علي نـائمة، ولكنها ستكون بعد اليوم نائمة ابدا. وقال هو ينزل من المئذنة:

خَـلُّوا سَـبِـيـلَ الْـمُـؤْمِنِ الْـمُـجَـاهِـدِ
فِـي الـلّهِ لاَ يُـعْـبَـدُ غَـيْـرُ الْـوَاحِـدِ
وَيُـوقِظُ الْـنَـاسَ إلـى الْـمَـسَـاجِـدِ[٢٨].

انه يصف نفسه بالمؤمن المجاهد، ومع ذلك فالاضطراب والتوجس موجودان. كان علي قد قال: دعوهن فانهن صوائح تتبعهن نوائح. وعلى حين غرة سمع الجميع صرخة، ومناديـاً ينادي: «تَهَدَّمَتْ وَاَللّهِ أَرْكَانُ الْهدَىٰ، وَانْطَمَسَتْ أَعْلامُ التُّقىٰ، وَانْفَصَحَتْ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَىٰ، قُتِلَ ابْنُ عَمِّ الْمَصْطَفَىٰ، قُتِلَ الْوصَيُّ

---

٢٨ ـ ديوان علي (ع).

الْمُجْتَبىٰ، قُتِلَ عَليٌّ الْمُرْتَضىٰ، قَتَلَهُ أَشْقىٰ الأَشْقِياءِ»[٢٩].

ان علياً، كما نلاحظ، هو ذلك الانسان الكامل الذي لم يغب الله عن نظره على امتداد نضالاته الملحمية، وفي سبيله لم يكن يرهب شيئا. انه هو الانسان الكامل الكامل الذي به نعرف الانسان الكامل المثال. والانسان نفسه يكوّن لنفسه باباً من ابواب المعنويات، ذلك الباب الذي يدخل منه الانسان الى عالم المعنويات، أو، في الأقل، يدرك المعنويات. ان قصدنا من القول بأن الانسان هو نفسه باب الى المعنويات، وانه من باب وجوده يستطيع ان يرى عالم المعنى ويكتشفه، هو القول بأن في الانسان حالات لا يتفق عالمها مع عالم الماديات. وهذا قول لا تحسبوا ان من يقول به هم علماء النفس والروح القدامى فحسب، بل يقول به كثير من علماء الروح المحدثين ايضا، فقد اعترف هؤلاء مؤخراً بأن في الانسان حالات لا يمكن تفسيرها على وفق المنظورات المادية، وانما لها حساباتها الخاصة بها. يقول النبي الكريم (ص):

«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ ربَّهُ».

ان الله قد فتح للانسان، في قبال الاشياء الاخرى كافة، حساباً منفصلاً ومستقلاً. لاحظ هذا التعبير القرآني الذي يقول:

---

٢٩ ـ منتهى الآمال.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ. أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٣٠].

أنّه يبين ذلك في حساب مستقل، ومن هذه الآية ظهرت عندنا مصطلحات مثل «آفاق» و «أنفس» ودخلت الأدب، فيقولون «آفاق النفس» و «قضايا نفسية». فهل بالامكان معرفة ذلك الشيء، أو الاشياء، الموجودة في الانسان، في النفس الانسانية، مما لا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً؟ هذا ممكن بالطبع، الا ان قصته طويلة ليس هذا مجالها التفصيلي. إنَّ واحدا من الامور التي لا تفسر تفسيراً مادياً هو القيم الانسانية، أو بالأحرى، هي انسانية الانسان، وهذه بحد ذاتها قضية عجيبة. انك عندما تنظر الى الكائنات تجد ان لكل منها صفة لا تنفصل عنها، فقد نقول: النمرية للنمر، والكلبية للكلب، والحصانية للحصان، اذ ليس بالامكان العثور على حصان لاحصانية فيه او كلباً لاكلبية فيه، او نمراً لانمرية فيه. ولكن الانسان، هو وحده الذي يمكن ان يكون انساناً لا إنسانية فيه، وذلك لأن الامور التي نعتبر انها هي انسانية الانسان، تلك التي تمنح الانسان خصوصياته الانسانية والتي تعتبر المقياس الذي يقاس به، لا الاشياء التي تدل على شخص الانسان، ليست مجموعة من

---

٣٠ ـ سورة حم، الآية ٥٣.

الأمور التي تصنع ببنية الانسان المادية، فهي ليست مادية ولا محسّة، على الرغم من انها تخص الانسان البشر، وترتبط بهذه الدنيا. فهي بعبارة اخرى، من المعنويات، لا الماديات.

ثم ان تلك الامور التي هي معيار انسانية الانسان، والتي تعطي الانسان شخصيته وتعتبر مقياساً لفضيلته، لا تصنعها الطبيعة، ولا أي صانع آخر، بل الانسان وحده هو الذي يصنعها. فالانسان هو باب المعنويات والوجود، وهو الذي يدرك عالم المعنى. يقول الامام الرضا(ع) في بعض كلماته:

«لا يعرف ما هنالك الاّ بما ههنا».

ان الامور التي يطلق عليها اسم القيم الانسانية، والتي تدل على معنوية الانسان، كثيرة. ولكن بالامكان تلخيص كل تلك القيم في قيمة واحدة، وهي الألم والتألم. جميع المذاهب والمدارس المختلفة في العالم قد بحثت في موضوع القيم الانسانية، وتوصلت الى هذه الحقيقة، وهي ان الانسان يتألم، يتعذب، لا كآلام الحيوانات الاخرى. فما هذا الألم، ألم انسانية الانسان؟ انه ألم تغرب الانسان في هذا العالم، ألم عدم انسجام الانسان مع العالم، الانسان الغريب عن هذا العالم، ذلك لأن الانسان قد جاء من دنيا اخرى لأداء رسالة، فانفصل عن اصله وابتعد عنه، وان هذا الابتعاد عن الاصل هو الذي يثير فيه

الشوق والعشق والأنين والاحساس بالغربة والرغبة في العودة الى الأصل، الى الوطن اي الرجوع الى الله، فهو قد اخرج من الجنة وجيء به الى دنيا الارض، ويريد ان يرجع مرة اخرى الى تلك الجنة الموعودة. الا ان مجيئه لم يكن خطأ وبلا سبب. لقد جاء لاداء رسالة. ولكن هذا الهجر يجعله في حالة دائمة من العذاب والألم. فألم الانسان، من هذا المنظور، هو الألم لله، الألم للبعد عن الله، والرغبة في الرجوع الى جوار الله وقربه. ان الانسان، مهما ينل من مقام، ومهما يصل اليه من كمال، ومهما يبلغ من مكانة، فهو ما يزال يحس بأنه لم يصل بعد الى معشوقه. يقولون ان الانسان يبحث دائما عن شيء لا يملكه، وانه مادام يفتقد ذلك الشيء فانه يطلبه، وعندما يناله يصاب بالملل والعزوف عن ذلك الشيء، فلماذا؟ انه من غير المنطقي أن يكون كائن ذا ميل طبيعي للتلذذ بشيء، ولكنه يعزف عنه، بعد ان يصل اليه ويناله، فيبعده عنه.

حكى احدهم فقال: كنت ازور احد المتاحف خارج البلاد، فرأيت من بين المعروضات تمثالاً لامرأة جميلة جدا وهي مضطجعة على سرير، وكان هناك تمثال آخر لشاب جميل على ذلك السرير، وقد ادار وجهه عن تمثال المرأة، واحدى قدميه على السرير والاخرى على الارض بهيئة من يريد الفرار من ذلك المكان. يقول الراوي: عندما رأيت هذا لم ادرك قصد

النحات من ذلك، فسألت ممن له خبرة بذلـك في المتحف، فقال: هذا تجسيد لفكرة افلاطون القائلة بأن الانسـان عندمـا يمتلك شيئا يتلهف عليه اول الأمر ويرى فيه جاذبية لا تقاوم فيولع به ويعشقه، ولكن بعد فترة وبعد ان يصل الى ما يريد، يموت الحب، فالوصال مقبرة الحب وبداية الملل والعزوف، بل وحتى النفور والفرار. وهذا امر طبيعي، الا أنَّ من يتعمق اكثـر يجد المسألة محلولة، وهي ان الانسان يمتاز بكونه لا يمكن أنْ يكون عاشقاً للمحدود، وللزائل الفاني الذي يتحيـز في حيّز، لأنـه يعشق الكمال المطلق ولا يعشق شيئـاً سواه. اي أنَّ الانسـان يعشق ذات الله، حتى الذي ينكر وجود الله، وحتى الذي يكفر به ويشتمه. إنَّ الذين يكفرون بالله ويشتمونه ولا يعترفون بالدين، لا يعلمون انهم في اعماق فطرتهم يعشقون الكمـال المطلق، انما هم قد اخطأوا الطريق اليه، اضاعوا المعشوق. وكما قال محي الدين بن العربي: «ما أحب احدٌ غير خالقه» ليس في الدنيا كلها من احب غيرَ الله، الا ان الله مخبوء تحت هذه الاسماء. يظن مجنون انه يعشق ليلاه، لأنه غافل عما في اعماق فطرتـه ووجدانه. ولذلك فان الرسل والانبياء لم يأتوا ليعلموا الناس اسم الله وعبادته، لأنهما موجودان اصلا في فـطرة الانسان ولكنهم جـاءوا ليحولـوا بين الناس والانحـراف على الطريق المستقيم ويدلوهم عليه، وليكشفوا لهم انهم قد اخطأوا المعشوق، وانهم

انما يعشقون الكمال المطلق، ويرشدوهم الى الطريق الموصل الى الكمال المطلق.

فانت قد تحسب ان الثروة هي كمالك المطلق، ومرة تظن ان الحياة هي كمالك المطلق، ومرة تعتبر الجاه كمالاً مطلقاً. انك تنشد الكمال المطلق، ولكنك تخطئه، فجاء الرسل ليخرجوك من الخطأ، ألم الانسان وشوق الانسان. ذلك الألم الآلهي الذي اذا ادرك فهمه، أي اذا انزاحت عن عينيه استار الخطأ، وعثر على معشوقه، لأصبح على غرار تلك العبادات الوالهة التي نراها، مثلا، في الامام علي (ع). ألا يقول القرآن:

﴿الَّذينَ آمَنوُا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّهِ، ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾[٣١].

يقول القرآن اذا حسب الناس انهم بهذه الفرضيات والنظريات، وبوصول الثروة، مثلا، حداً معيناً او اذا حصل كذا وحدث كذا، يصبح الناس في رفاه ويعيشون في طمأنينة وامان، وتزول عنهم حالة الاضطراب والقلق والتشكي، يقول القرآن اذا حسب الناس ذلك، فانهم على خطأ وعليهم ألّا يمشوا في هذا الطريق. ان القرآن، بالطبع، لا يقول اتركوا هذه الامور، فهي

---

٣١ ـ سورة الرعد، الآية ٢٨.

مطلوبة، ولكن الخطأ في اعتبارها هي الموصلة الى الراحة والهدوء والكمال المطلوب

﴿ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾ اصحاب المذاهب الأخرى يرون ان الانسان يتألم لخلق الله، لا لله. حتى ان بعضهم يتساءل: ما معنى ألم الانسان لله؟ ولكن اذا لم يتوجه الانسان نحو الله، فان ألمه للانسان لا يصل الى شيء. الانسانية هي الألم لله، ومن الألم لله يكون الألم للانسان. ما اجمل ما يقوله الصوفيون عن سير الانسان نحو التكامل، فيذكرون ان مسيرة الانسان تلك تتحقق في اربع مراحل:

١ ـ سير الانسان من ذاته الى الله.

٢ ـ سير الانسان مع الله في الله، أي معرفة الله.

٣ ـ سير الانسان مع الله الى خلق الله.

٤ ـ سير الانسان مع الله بين خلق الله لانقاذ خلق الله.

ما من قول اروع من هذا. سير الانسان الى الله. فما دام الانسان منفصلا عن الله يكون جميع السير على خطأ. ولكنه اذا وصل الى حيث يذكر الله، ويعرف الله، ويرى نفسه قريباً من الله، ويحس بالله معه، عندئذ يكون قد رجع ثانية الى الله، ثم مع الله، ويصبح انساناً ربّانياً، ويكون انسان لا يغفل عن الله.

وانسان هذا شأنه يتحرك بين خلق الله، ويعمل من اجل نجاتهم، ومن اجل تحريكهم وتقريبهم الى الله. اذا قلنا ان سير الانسان يكون من خلق الله الى الله، فانه سيبقى في مكانه اذا قلنا ان الانسان بغير ان يتحرك نحو الله، يريد ان يتحرك نحو ابناء البشر، كالمذاهب المادية الانسانية المعاصرة، لانقاذ الانسان، فانه لن يبلغ غاية وهو كذب محض. لم يستطع احد ان ينجي الناس الا الذين استطاعوا ان ينجوا انفسهم اولا. فما معنى نجاة الانسان؟ وممَ نجاته؟ نجاته من أسر الطبيعة، من أسر اخيه الانسان، اي تحرر الانسان من الانسان إنْ صحَّ القول صحَّ التحرر. الانسان ينبغي ان ينجو من ذاته، من نفسه الأمارة بالسؤ، من محدوديته الخاصة. ومالم ينج الانسان من حدوده الخاصة، فلن يقدر على التحرر من اسار الطبيعة، ولا من اسار الناس الآخرين.

هل الانسان، من حيث المنظور الاسلامي والمقاييس الاسلامية، هو ذلك الذي يحمل همَّ الآخرين ويتألم لهم، أم انه الذي يحمل ألم الله فقط، أم انه لكونه يحمل ألم الله يحمل ألم الانسان ايضا؟ انه يحمل ألم الانسان ايضا، وهذا هو الألم. لاحظ كيف يعبر القرآن ونهج البلاغة عن ذلك. يقول القرآن في الرسول الكريم (ص):

﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلىٰ آثارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنوُا بِهذا

الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[٣٢].

ان الرسول اشد ما يكون حرصا على هداية الناس، ومن اجل سعادتهم ونجاتهم وتخليصهم من كل القيود ومن ابتلاءات الدنيا والاخرة، حتى انه ليكاد يقتل نفسه بسبب ذلك الحرص على سعادة امته، فتنزل الآية: كأنك تريد ان تهلك نفسك من اجل الناس! وتنزل آية أخرى:

﴿طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرآنَ لِتَشْقَىٰ إلاّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾[٣٣].

وفي آية اخرى يقول:

﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالْمُؤْمِنِينَ رَؤُرُفٌ رَحِيْمٌ﴾[٣٤]. فانظر ما ألطف تعبير القرآن. والعنت المشقة والعذاب. فهذه كلها تسبب له الألم. فالمسلم هو الذي يحمل ألم ا لله وألم خلق الله.

معلوم ان الرجل منا لينفق الكثير ويتحمل الكثير لكي يعلم اولاده، بحيث ان الناس يقولون: ما أحرصه على تعليم اولاده!

---

٣٢ ـ سورة الكهف، الآية ٦.

٣٣ ـ سورة طه، الآية ١و٢و٣.

٣٤ ـ سورة التوبة، الآية١٢٨.

والنبي (ص) كان حريصاً على الناس حرص البخيل على مال الدنيا.

والامام علي (ع) يعبر عن ذلك ايضا. أخبر يوما ان واليه على البصرة، عثمان بن حنيف، قد حضر وليمة لأحد اشراف البصرة. وعلى الرغم من انها كانت وليمة بريئة لا خمر فيها ولا قمار ولا فسوق فان الامام يكتب اليه يقول:

«أما بعد، يا بن حنيف، فقد بلغني أنّ رجلا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو. . .» ثم يأخذ بوصف آلامه، ويقول: «. . . . ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي. . . .».

ولا يعني هذا ان علياً يريد ان يقول ان ارتداء غالي الثياب واستطعام فاخر الطعام حرام فما الى هذا يقصد، بل انه يرمي الى هدف آخر:

«ويقودني جشعي الى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى واكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أنْ تبيت ببطنة

وحولك أكباد تحنّ الى القدّ

أي يكفيك ألما ان تنام شبعاناً ومن حولك بطون جائعة. فهذا هو ألم خلق الله. وهذا هو معين الانسانية، وهذه هي أم القيم: «أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي أنْ يُقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ»(٣٥).

فالكلام، كما ترى، كله يدور على الأحساس بآلام الآخرين. ان الألم الذي يحمله المرء لأبناء جلدته لذيذ. وعلى هذا يضرب ابن سينا في آخر كتاب «الاشارات» مثلا، فيقول ان ذلك أشبه بالحكة التي تصيب جلد الانسان، فهو عندما يحكها يتألم، ولكنه في الوقت نفسه يشعر بالراحة واللذة وهذا الألم اليس مرا. او قد يكون حزين القلب فيبكي في مجلس سيد الشهداء الامام الحسين (ع)، وطبيعي ان الانسان لا يبكي اذا لم يكن قلبه يحترق، ومع ذلك فان الانسان يرغب في ان يحضر هذه المجالس، وان يحس بألم احتراق القلب، وان يذرف الدموع، فقطرات الدمع النازلة هذه تشعر الانسان بحالة من الصفاء والراحة. انه لصعب حال ذلك البدن الذي روحه ليست روح ذلك البدن وحده، بل هي روح جميع الابدان، فهي التي

---

٣٥ ـ نهج البلاغة.

تحمـل وحـدهـا آلام الجميـع. وعلى الـرغم من وجـود كـل الامكانات، فان هذا البـدن هو الـذي يجب ان يحتذي نعـالاً مرقعاً، لأنه قد اصبح توأما لروح مثل روح علي (ع). ولقد قال احد الشعراء ما معناه: ما أشد عذاب الروح اذا كبرت! فالروح اذا كبرت واصبحت روح جميع الابدان واحست بآلام الجميع، تكون مسؤوليتها ثقيلة جدا. يسير في الشارع فيرى امرأة تحمل سقـاء الماء. أيستـطيع علي (ع) ان يمـر بهـذا المنـظر مـرور اللاابالي؟ ان امرأة تحمل السقاء بنفسها يعني انها وحيدة وليس لها من يعينها، او اذا كان لها، فانه لا يتعهدها بالرعاية فيتقدم علي الى المرأة ويطلب منها بكل ادب ان يحمل عنها السقاء الى حيث دارها، ثم يسأل عما دعاها الى الاستسقاء بنفسها، فتقول له ان زوجها قد استشهد بين يدي علي بن ابي طالب وانها ليس لها من يعينها. فيلتهب كل كيان علي لسماع ذلك. يقول الرواة ان علياً لم ينم في تلك الليلة حتى الصباح، وعند الصبح يحمل هو ومن معه اللحم والخبز والتمر ويذهبون الى دار تلك المرأة، وبيـده الكريمـة يشوي اللحم ويـطعم أطفالهـا اليتامى بنفسـه ويجلسهم في حجره وبيد الحنان يمسح على رؤوسهم، ويطلب منهم ان يغفروا لعلي الذي غفل عنهم. ثم يوقد النار في التنور، واذ يقترب من النار ويحس بحرارتها، يخاطب نفسه قائلا: ذق حرارة نار الدنيا حتى تتذكر حرارة نار جهنم، فلا تغفل عن حال

الناس واليتامى والفقراء.

نعم، ذلكم هو نموذج الانسان الكامل الاسلامي.

وكما قلنا من قبل، فالافراط في التمسك بقيمة من القيم يمحو سائر القيم الاخرى. ففي السابق كان المجتمع الاسلامي اكثر تمسكا بالعبادات بحيث كانت القيم الأخرى يكاد يغفل عنها. انني احس ان هناك موجة اخرى من الافراط آخذة بالظهور وبالتكّون. فهناك بعض يريد ان يكون الاتجاه اكثر نحو العلاقات الاجتماعية الاسلامية على حساب العلاقات الالهية للاسلام، وهذا يعني انحرافاً آخر اذا كنا سوف نزلُّ عن طريق الاسلام المستقيم، فلا فرق بعد ذلك بين ان نفرَّ من المجتمع في عبادتنا وان نفرَّ من الله في مجتمعنا. يقول القرآن:

﴿مُحَمَّدٌ رسَوُلُ اللّهِ والّذِينَ مَعَهُ أشِدّاءَ علىٰ الْكُفّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمُ تَراَهُمْ رُكَّعَاً سُجَّداً يَبْتَغُوُنَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانَاً سِيمَاهُمْ في وجُوُهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلَهُمْ فِي التَّوْراَةِ ومَثَلَهُمْ فِي الإنْجيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فآزَرَهْ فاسْتَغْلَظ فاسْتَوىٰ علىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّاَعِ لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفّارَ. وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْراً عَظَيمَاً﴾[٣٦].

---

٣٦ ـ سورة الفتح، الآية ٢٩.

هنا يشرح القرآن كيف هم اصحاب رسول الله والذين تربوا على يديه ، ويستعمل كلمة كفار لوصف اعداء الله واعداء الحقيقة والذين يريدون اخفاء وجه الحق. وفي مواجهة هؤلاء يقول القرآن بصلابة وصراحة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[٣٧].

في هاتين الآيتين تتجسد خصوصية المجتمع الاسلامي ، تلك الخصوصية التي نسيناها منذ قرون. وفي الآية السابقة ، حيث يقول:

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾

يشير الى تلك القيمة الآلهية. فهؤلاء ، في المجتمع ، يبلغون الحد الأعلى ، ومع ذلك فهم يريدون فضلا من الله ومزيدا لأنهم لا يقنعون بما عندهم ، بل يريدون التقدم يوماً بعد يوم ، وطلبهم هو رضا الله ، وهذا أعلى صورة من صور عبادتهم ، فهم لا يريدون غير رضا الله.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي

٣٧ ـ سورة الصف، الآية ٤.

التَّوْرَاةِ ومَثَلُهُمْ فِي الأنْجيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾

هنا يضرب مثلا للمجتمع الاسلامي ، فهو كالنبات الذي ينمو منذ البداية ويزدهر بحيث يتعجب منه الزارع . لاحظ صفاتهم :

﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾[٣٨] .

هناك ايضا صفات اخرى لهم :

﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار﴾[٣٩] .

والصبر في القرآن يعني المقاومة في الحرب . ان هذه الصفات لا تنفصل بعض عن بعض في الاسلام . فمن استخف بواحدة منها يكون قد استخف بها جميعا . ولقد جاء في وصف اصحاب الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ وهذا ما رأيته في كثير من الاحاديث ـ قولهم «إنَّهُمْ رُهْبَانٌ بـالْلَيْلِ وَلِيُوثٌ بالْنَهَارِ»[٤٠] فانت اذا زرتهم ليلا حسبتهم جمعا من الرهبان في

---

٣٨ ـ سورة التوبة، الآية ١١٢ .

٣٩ ـ سورة آل عمران، الآية ١٩ .

٤٠ ـ سفينة البحار، مادة: صحب .

العبادة ، وانْ بحثت عنهم في النهار وجدتهم اسودا في ميدان الوغى. قارن هذا بحالة اصحاب رسول الله. فثمة حديث معروف في (اصول الكافي) وفي مواضع اخرى عن الشيعة والسنة ، جاء فيه ان رسول الله (ص) تفقد يوماً اصحاب (الصفة)[٤١] ، واليك ما ورد في الكافي :

عن اسحاق بن عمار قال سمعت ابا عبدالله (ع) يقول : ـ ان رسول الله (ص) صلىٰ بالناس الصبح فنظر الىٰ شاب في المسجد وهو يحفق ويهوي براسه ، مصفر لونه ، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه. فقال له رسول الله (ص) : ـ كيف اصبحت يا فلان قال : ـ اصبحت يا رسول الله موقناً .فعجب رسول الله (ص) من قوله ، وقال: ـ انّ لكل يقين حقيقةً ، فما حقيقة يقينك؟ فقال: ـ ان يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني واسهر ليلي واظمأ هواجري فعزفت نفسي من الدنيا وما فيها حتىٰ كأنني انظر الىٰ عرش ربي ، وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك ، وانا فيهم وكأني انظر الىٰ اهل الجنة يتنعمون في الجنة ويتعارفون وعلىٰ الأرائك يتكئون وكأني انظر الىٰ اهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأني الآن اسمع زفير النار يدور في مسامعي. فقال رسول الله (ص) لأصحابه : ـ هذا عبد نور الله

---

٤١ ـ سفينة البحار، مادة صفف.

قلبه بالايمان. ثم قال له: ـ الزم ما انت عليه. فقال الشاب: ـ ادعُ الله لي يا رسول الله ان ارزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله (ص) فلم يلبث ان خرج في بعض غزوات النبي (ص) فاستشهد بعد تسعة نفرٍ وكان هو العاشر(٤٢).

تلك كانت عبادته، وهذه كانت امنيته، وذاك هو ليله وهذا هو نهاره. هذا هو المسلم المؤمن انسان الاسلام. هذا هو الذي يحمل الألمين، ألم الله، وألم خلق الله، انما ألمه الثاني من ألمه الاول يقول القرآن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٤٣).

فما هذا العون الذي يمدنا به الصوم والصلاة؟ ما هو عون الصوم لنا؟ وما هو عون عبادة الله لنا؟ انت اذا شئت ان تكون مسلماً حقاً في المجتمع قوياً، اذا شئت ان تكون مجاهداً قوياً، عليك ان تكون من المصلين المخلصين. نلاحظ ان بعضهم يستهين بالصلاة ويقول: ما معنى الصلاة؟ ولم العبادة؟ هذه امور اجدر بها العجائز من النسوة. على المرء أنْ يكون اجتماعياً متنور

---

٤٢ ـ اصول الكافي، ج٢، كتاب الايمان والكفر، باب حقيقة الايمان واليقين، الرواية الثانية.

٤٣ ـ سورة البقرة، الآية ١٥٣.

الفكر ، كذاك التنور على عهد عمر. لعلك قد سمعت ان عمراً قد حذف من الأذان جملة «حيّ علىٰ خَيْرِ الْعَمَلِ» فلماذا؟ لانه اعتبر ذلك تنوراً فكرياً ، وكان ذلك خطأً كبيراً. كان زمانه زمان الفتوحات الاسلامية وزمان الاندفاع الى الجهاد والحماس في المجاهدة ، وكان الجند يتوجهون الى الحرب افواجاً ، وقد تمكنوا على قلة عددهم ، ان يخضعوا العدو القوي على كثرة عدده. لم يكن عدد المسلمين يزيد عن خمسين ألفاً او ستين الفاً ، ولكنهم كانوا يحاربون امبراطوريتين عظيمتين ، تتألف جيوشهما من مئآت الآلاف ، ولكن جند الاسلام كانوا يهزمونها. لقد جاءت ايران بمئات الآلاف من الجند لمحاربة الاسلام ، وكان جند الاسلام أقل من مئة الف ويحاربون على جبهتين وينتصرون في كليتهما. لقد اثبت الجهاد قيمته وأثره ، وان الاسلام عندما يربي المجاهدين كيف يكون هؤلاء. هنا قال عمر إنَّ من المصلحة ان نحذف من الاذان «حيّ علىٰ خَيْرِ الْعَمَلِ» وذلك لأن المؤذن عندما يؤذن بصوته المرتفع: الله اكبر ، الله اكبر ، ثم ينادي بالشهادتين ، ثم يقول حيّ على الصلاة ، حيّ على الصلاة ، اي اتجه نحو الصلاة. الى هنا لا يوجد مانع ، ثم حيّ على الفلاح ، حيّ على الفلاح ، والفلاح في الصلاة ، الى هنا ايضا لا مانع ، ولكن حيّ على خير العمل ، اي اتجه نحو افضل الاعمال ، والصلاة هي افضل

الاعمال ، وهذا ما يفسد نفسية المجاهدين اذ يتحيرون بين الذهاب الى الصلاة والذهاب الى الجهاد ، ولما كانت الصلاة افضل الاعمال ، يقولون اننا بدلا من ان نذهب الى ساحة الحرب للجهاد ، نبقى في المدينة الى جوار قبر النبي ونقوم بأفضل الاعمال وهي الصلاة ، وليذهب من يشاء الى الحرب ليكونوا في عداد القتلى ، او الجرحى او ليفقدوا عينا او يدا او رجلا او تدلق احشاؤهم ، بينما نحن في دورنا بقرب اهلنا واطفالنا ، ونصلي صلواتنا ونكون نحن السابقين عليهم. قال عمر: كلا ، هذه تربية سيّئة بل قولوا: «الصلاة خير من النوم» بدلا من «حيّ على خير العمل» التي تضعف المجاهدين. الا انه لم يخطر له ان هؤلاء الخمسين ألفاً ، او الستين ألفاً ، او السبعين الفاً او الثمانين ألفاً من الجند الذين لم يبلغوا المئة الف عدّاً ، بأية قدرة وقوة استطاعوا مجالدة مئآت الآلاف من الاعداد في جبهات متباعدة وينتصرون؟ من اين جاءهم هذا النصر؟ أكان نصراً بقوة السلاح؟ هل كان سلاح العرب افتك من سلاح الفرس او الروم؟ كلا فالجيشان الفارسي والرومي كانا من اكبر مدنيتين في ذلك الزمان ، وفي ايديهم اجود السلاح ، بينما كانت اسلحة العرب أشبه بقطع من الحديد بازاء سيوف الفرس والروم. هل كان العنصر العربي اقوى من عنصري الفرس والروم؟ كلا ، فقد لاحظنا في التاريخ ما انزله شابور ذو الاكتاف بالعرب. ألم يأسر

الآلاف منهم؟ ألم يسوّد اكتافهم؟ ألم يربطهم بسلاسل الحديد؟ ثم بعد ذلك ألم يهزم الفرس العرب اذن فما القوة التي حارب بها العرب المسلمون وانتصروا على الفرس والروم؟ لقد كانت قوتهم قوة الايمان قوة الايمان بحي على خير العمل ، وقوة الايمان بالصلاة ، تلك القوة التي تأتي من المناجاة مع الخالق فمنه تستمد القوة وهو قائم ليله يناجي ربه ، وتلك القوة هي التي ترفع من معنويته. اي ان معنوية العربي هي التي هزمت الفرس والروم. فمن اين جاءته هذه المعنوية؟ انها من ايمانه ، وما الصلاة الا تجديد للايمان. انها من (الله اكبر) التي تعني كل شيء في الدنيا صغير ، وان الله اكبر من كل كبير انه يرى العظمة والهيمنة الظاهرية ، ولكن الله اكبر يرد على الجميع ، فلا يعود يرى عظمة في اي شيء غير الله ، وعندما يرى مئات الآلاف امامه يقول: لا حول ولا قوّة الا بالله العليّ العظيم. ان صلاة الجندي هي التي تمنحه القوة. ولكنه يقول ان «حي على خير العمل» تحمل الانسان المجاهد على ترك الجهاد والقعود في داره ليصلي. انه قد جانب الصواب ، لأنه لم يخطر له ان من كان الجهاد فرضاً واجباً عليه ، ولا بد له من الذهاب الى ميدان الحرب ، فان بقاءه للصلاة في مسجد المدينة حرام. ان الجهاد شرط لقبول الصلاة. ان من تتوفر فيه شروط المجاهد ويجب عليه أن يلتحق بالجهاد ، تكون صلاته بغير جهاد باطلة. وهذا

لن يكون خير العمل ، بل شر العمل ، ولا تلك الصلاة صلاة اسلامية. ان الصلاة التي تحمل الانسان على الفرار من الجهاد والركون الى المسجد ليست صلاة اسلامية. ان الصلاة الاسلامية هي خير العمل ، لا أن يزال خير العمل من الأذان بحجة انه تربية سيئة ، وان يستعاض بالصلاة عن الجهاد.

انت الذي تقول بهذا أخرج هذا الخطأ من رأسك. في منطق الاسلام ، وفي نظام القيم الاسلامية ، أعلى القيم هي العبادة ، ولكن العبادة الاسلامية لها شروط عبادية تتطابق مع الموازين القرآنية. لقد بين لنا القرآن ان الصلاة لا تكون صلاة الا عندما يتبين اثرها. فكيف يتبين اثرها؟

﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشاءِ والْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

اذن فمن مميزات الصلاة انها تحول بين المرء واقتراف الاعمال السيئة. فاذا انت صليت وارتكبت اعمالا سيئة فاعلم ان صلاتك ليست صلاة وعليك ان تصححها ، وعندئذ سوف توصلك صلاتك الى جميع القيم ، وذلك بشرط ان تكون صلاتك صلاة صحيحة حقاً.

علينا ان نتعلم كل شيء والقيم الاخرى من علي (ع) فهو كما قلنا من قبل ، جامع كل القيم الاسلامية. ان نهج البلاغة ،

وهوكلام علي ، كلام حيثما تقلّبه تجد كأنك تقرأ لاشخاص عديدين. فعلي في كل ظرف شخصيته ، أي انه شخصية تجمع كل القيم الإنسانية . فمرة ترى علياً يتفجر حماسة فتخاله وقد امضى كل عمره في هذا المسير ، فهو روح مملؤة بالحماس العسكري ، ومرة تراه صوفياً لا همَّ له سوى الانصراف الى مناجاته مع معشوقه ، فتقول انه في حياته لم يتجه الى أمر آخر. ولاظهار ذاك نستشهد بقطعتين قصيرتين من نهج البلاغة تمثلان هاتين الحالتين ، للتعرف على منطق الاسلام.

اول تماس بين امير المؤمنين ومعاوية في صفين ، كان عندما جاء الجيشان ، كل من جهة ، الى حيث تقاربا على شط الفرات ، فيسرع معاوية بالايعاز الى قواته فيقطعون الماء عن اصحاب علي قبل ان يصل هؤلاء اليه ، ويفرحون بسبقهم ، ويحسبون ان عدم وصول اصحاب علي الى الماء سيحملهم على الفرار.

اقترح علي التفاوض في البداية لحل المشكل ، فالعقدة التي تحل باليد ينبغي ألا تحل بالاسنان. يجب ان لا تفعلوا ، قدر الامكان ، شيئا يؤدي الى اقتتال طائفتين من المسلمين واراقة دمائهم. فارسل اليهم انكم منعتم الماء قبل ان نصل. جمع معاوية مجلسه العسكري وطرح عليهم الأمر يستشيرهم في اطلاق الماء لجيش علي أم لا. قال بعض فليطلق ، وقال بعض

فليحبس. وقال عمرو بن العاص فليطلق ، اذ انكم اذا حبستموه عنهم اخذوه منكم بالقوة ، ولكن الآخرون رفضوا اطلاق الماء ولم يطلقوه ، فاضطروا علياً الى القتال. عندئذ ترون علياً وقد وقف امام جيشه يلقي خطبة حماسية أشد أثراً من ألف طبل وألف بوق وألف لحن عسكري :

«قَدْ اسْتَطْعَمُوكُمْ الْقِتَالَ ، فَأَقِرُّوا عَلىٰ مَذَلَّةٍ ، وتَأْخِيرِ مَحلَةٍ ، أوْ رَوّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّماءِ تَروَوْا مِنَ الْمَاءِ ، فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ ، والْحَياةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ . . .»(٤٤).

لاحظ ما اشد اثارة هذه الكلمة ، كان اثرها أقوى من ١٠٠ (مارش) عسكري ، فاندفع جيش علي وازاح جيش معاوية الى مسافة عدة كيلومترات ، وتسلم شريعة النهر وقطع الماء عن جيش معاوية ، فارسل معاوية الى جيش علي يطلب اطلاق الماء ، فرفضوا وقالوا انهم هم الذين بدأوا ذلك. الا ان امير المؤمنين قال هذا ما لن نفعله نحن. انه خلاف الفتوة. انني اواجه العدو وجهاً لوجه في ساحة الحرب ، ولكني لن ارضى بنصر يأتي عن طريق هذا النوع من التضييق ، فليس هذا من شأني ولا من شأن اي مسلم عزيز كريم. هذه هي المروؤة والفتوة ، والمرؤة اسمى من الشجاعة.

---

٤٤ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٥١.

هذا موقف من مواقف علي ، في دور ولباس معين. وفي موقف آخر تـراه ، بعد ان ينتهي من قضـاء حاجـات الناس ، يختلي بمفرده مع الله ، فيبثه مناجاته وعبـاداته وعشقـه. وهذا ايضا تجده في نهج البلاغة:

«أللّهم إنَّكَ إنْسُ الآنِسين لأَوْلِيَائِكَ ، وأحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِلِينَ عَلَيْكَ ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ وَتَـطَّلِعُ عَلَيْهِمْ في ضَمَائِرِهِمْ ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ ، فأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ إلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ. . .»(٤٥).

وانه ليسعدني ان اقول ان شبابنا اخذ مؤخراً يولي اهتماماً اكبر بقراءة نهج البلاغة ودراسته بجميع جوانبه.

اقرأوا دعاء كميـل ، انه دعاء علي. انه من حيث المضمون أرفع ما يكون تصوفا. أي انكم اذا قرأتموه من اوله الى آخره لا تجدون فيه ذكـراً للدنيا ولا لـلآخرة ، واقصـد بالآخـرة الجنة والنار. كل ما ترونه هو ما فوق الدنيا وما فوق الآخرة: الله ، والله فقط. علاقة عبد مخلص ، خافض الرأس ، واله مدله بذات الله القدسية ـ اي العبادة الحقيقية. انظر كيف يناجي علي في دعاء كميـل ربه ، اوزين العابدين في دعاء السحر من ليالي شهر

---

٤٥ ـ المصدر نفسه، الدعاء ٢٢٥.

رمضان ، دعاء ابي حمزه الثمالي ، كيف يناجي ربه. هذه خطوتنا الاسلامية الأولى. خطوتنا الأولى ان نقترب من الله ، وباقترابنا من الله نستطيع ان ننجز مسؤولياتنا ، بما فيها مسؤولياتنا الاجتماعية ، على افضل الوجوه ، ولنسع للتخلص عن هذا الالتزام الاحادي الجانب الذي ابتلى به الاسلام ، لكيلا نصاب به مرة اخرى ، وألا نستهين بأهمية العبادة مطلقاً.

أمر الامام الصادق (ع) وهو في اواخر لحظاته ، أن يجمعوا له جميع اقربائه وافراد اسرته واذْ اجتمعوا ، فتح الامام عينيه ، وقال جملة واحدة ، وانتقل الى الرفيق الأعلى : لن ينال شفاعتنا مستخف بالصلاة!

ان من أعجب الدورات في حياة الامام علي لا تتجاوز ٤٥ ساعة. كانت الدورة الأولى في حياته تمتد من ولادته حتى بعثة الرسول (ص) ، والدورة الأخرى تمتد من البعثة حتى الهجرة النبوية ، والدورة الثالثة تمتد من الهجرة حتى وفاة الرسول (ص) ، والدورة الرابعة ، وهي ذات لون آخر ، تبتدى من وفاة النبي حتى خلافته على امتداد خمس وعشرين سنة ، وسنوات حكمه الاربعة والنصف تغطي دورة حياته الخامسة ، والدورة الاخيرة في حياته أقل من يومين ، وهي من اعجب دورات حياته ، وهي الفترة ما بين اصابته بضربة ابن ملجم ووفاته. فهنا يظهر كيف كان علي انساناً كاملاً ، في هذه

السويعات التي يواجه بها الموت. ان من المقاييس التي يقاس بها الانسان الكامل هو ردود فعله عند مواجهة الموت. ان اول رد فعل بدا من علي عند مواجهة الموت هو انه عند نزول الضربة على مفرقه نطق بجملتين اثنتين ، الأولى : امسكوا بهذا الرجل. والثانية: فزت ورب الكعبة!

واذ جيء بعلي وسجّي على فراشه ، أتى له بطبيب عربي اسمه أسْيد بن عمرو ، كان قد درس في جند يشاهبور وسكن الكوفة ، فيفحص جرح الامام ويدرك ان السم قد نفذ الى دمه ، فيظهر عجزه عن معالجته ، ويقول له : ان كانت لك وصية فاوص بها.

اما القاتل الملعون ، فانه ، عندما تذهب اليه ام كلثوم تسأله عما حمله على ارتكاب فعلته الشنيعة ، وتتمنى ان يبرأ ابوها من جرحه ويبقى هو مسود الوجه ، يرد عليها قائلا : لن يبرأ ابوك فقد اشتريت السيف بألف درهم (او دينار) وسقيته السم بألف درهم (او دينار) وانه لسم لو وصل الى مفارق اهل الكوفة كلهم لاهلكهم. فابوك ميت لا محالة.

وعلى الرغم من عجائب ما في الامام علي (ع) فان معاجزه الانسانية أبرز هنا وأجلى. اتى له بشيء من الطعام ، ولكنه لا يستطيع ان يتبلع به ، فيؤتى بعض اللبن فيشربه ، ثم يطلب ممن

حوله ان يحسنوا معاملة اسيرهم ، قاتله. ومن جملة ما يوصيهم به قوله:

«يا بَني عَبْدَ الْمُطَّلِبِ ، لاَ أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً ، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ» أَلاَ لاَ تَقْتُلَنَّ بِي إلاّ قَاتِلي. أنْظُرُوا إذا مُتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هٰذِهِ فَاضْرُبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ ، وَلاَ تُمَثِّلُوا بِالْرَّجُلِ . .»[٤٦].

ثم يلتفت الى ابنه الحسن ويقول له لك الخيار بعدي ان شئت اطلقته ، وان شئت اقتصصت منه ولتكن ضربة واحدة ، فان مات بها فبها وان لم يمت فاتركوه. ثم يسأل عنه ان كانوا قد اطعموه ورووا عطشه.

هكذا كانت معاملته لعدوه ، وتلك هي فتوة علي وانسانيته.

انه طريح الفراش ، ويشتد فيه أثر السم ساعة فساعة ، ويأتي اصحابه وهم واجفون ، باكون ، نائحون ، ولكنه هو لم تفارق الابتسامة شفتيه ويقول:

«وَاللّهِ مَا فَاجَأَني مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ ، وَلاَ طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ ، وَمَا كُنْتُ إلاّ كَقَارِبٍ وَرَدَ ، وَطَالِبٍ وَجَدَ وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ لِلأبْرارِ»[٤٧].

---

٤٦ ـ نهج البلاغة، ص٤٢١.

٤٧ ـ نهج البلاغة، ص٣٧٨.

يشبه علي (ع) نفسه بالمثل المعروف عند العرب البدو ، حيث انهم كانوا يمكثون حيث الماء والكلأ ، ويضعنون بحثا عن مكان آخر اذا ما نفذ الماء والكلأ . وفي الايام القائظة كانوا يبحثون ليلا عن مكان كثير الماء والشجر . فعلي يقول ان مثلي مثل العاشق الذي ينال الوصال ، مثل الذي يقع في حالك الظلام على نبع الماء ، فما أشد فرحته وسروره حينذاك! فعبر عن ذلك بقوله : فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ .

وفي اللحظات الاخيرة كان الجميع قد تحلقوا حوله ، وكان السم قد أثر في بدنه الشريف ، ويتتابه الاغماء احيانا ، ولكنه كان كلما افاق اخذ بايراد النصيحة والموعظة . ان آخر مواعظه هي تلك الكلمة المؤثرة التي اوردها في عشرين مادة [٤٨] ، حيث يبدأ اولا بمخاطبة ولديه الحسن والحسين (ع) ، ثم أبنائه جميعا ، ثم يوجه الخطاب الى جميع الناس الذين يسمعون صوته ويقرأون كلماته حتى يوم القيامة .

ان من يضع مدرسة عقائدية للبشر ، لا بد ان تكون له نظرية معينة بخصوص كمال الانسان أو الانسان الكامل ، ويطلق على الاخلاق اسم الفن ، لا العلم ، أي انه يربط الاخلاق بما ينبغي ان يكون لا بما هو كائن . فالاخلاق تعني مجموعة الخصال التي

---

٤٨ ـ تحف العقول، ص١٣٥ .

تنبغي لـلانسان ولخيـره ، بحيث انه ان اتصف بهـا بلغ مقـام الانسانية الرفيع ، وهذا تعبير آخر عن الانسان السامي ، الانسان الافضل. الانسان الكامل.

ويمكن اجمـال نظريـات الأصحاب المـذاهب المختلفة بخصوص الانسان الكامل بما يلي :

١ ـ احدى النظريات هي نظرية العقليين ، اي نظرية اولئك الذين كانوا ينظرون الى الانسان من الزاوية العقلية ، ويعتبرون العقل جوهر الانسان. والعقل هو قوة الفكر والتفكير عند هذه الجماعة من الفلاسفة القدماء ، ومنهم فـلاسفتنا ، امثـال ابن سينا. يقول هؤلاء ان الانسان الكامل هو الانسان الحكيم ، وان كمال الانسان في حكمته. فما معنى الحكمة عندهم؟ أهي ما نطلق عليه اليوم اسم العلم كلا. انهم يقصدون بالحكمة النظرة الكلية الصحيحة التي يحملها المرء عن الوجود ككل ، وهذا غير العلم الذي يعني بجانب محدد من الوجود. ولكي يتضح الفرق بين الفلسفة والعلم ، اقول:

فانت عندما تريد ان تطلع على مدينة طهران ، يكون ذلك باسلوبين: الاول هو الاطلاع الكلي العام بغير تدقيق. والآخر هو الاطلاع الجزئي مع الدقة والتمحيص. فمرة تريـد معرفـة بالمدنية كمعرفة مهندس البلدية الذي اذا طلب منـه ان يرسم

خريطة لطهران يكون قادراً على رسمها بشكل تخطيطي عام ، من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب ، والجنوب الشرقي والجنوب الغربي انه يستطيع ان يرسم الشوارع والميادين والحدائق العامة بشكل عام اجمالي ولكن بصورة مبهمة فأنتَ لا تستطيع ، مثلا ، ان تعثر على دارك بدقة في تلك الخريطة. ولكن قد يكون هناك شخص لا يعرف عدد الشوارع والميادين في المدينة ، ولكنك اذا سألته عن محلة معينة يستطيع ان يذكر لك جميع جزئيات تلك المحلة. اما المهندس الذي رسم الخريطة لكل طهران ، اذا سألته عن جزء صغير منها ما وجدت بغيتك عنده. كذلك اذا سألت العليم باحدى محال المدينة عن تفاصيل محلته لاجابك الى طلبك ، ولكنه لن ينفعك في معرفة المدينة ككل.

والفيلسوف هو ذلك الذي يدرس هيكل الوجود بمجموعه للعثور على رأسه ومبدأ ظهوره ومنتهاه ومراحل تطوره والقوانين الكلية التي تسوده. ولكنك اذا شئت ان تسأل هذا الفيلسوف سؤالاً عن النبات الفلاني ، او عن الحيوان الفلاني ، او عن الصخور الفلانية ، او عن الشمس والقمر ، فلن تجد عنده ما يروي تعطشك الى هذه المعرفة. فالحكمة في نظر الفيلسوف هي المعرفة العامة بالوجود كله ، هي الاطلاع على مجموع هيكل العالم بمثلما ينعكس على مرآة عقل الحكيم ، ولكن

بصورة مبهمة غير متميزة التفاصيل.

قالوا ان كمال النفس الانسانية يكون بانعكاس صورة هيكل العالم العام في عقل الانسان ـ ولهذا فسر الفلاسفة ذلك بقولهم: «صيرورة الانسان عالماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني».

فالانسان الكامل عند الفلاسفة هو ذاك الذي وصل عقله حد الكمال، بمعنى ان في ذهنه صورة لهيكل الوجود مرتسمة عن طريق الاستدلال والمنطق والبرهان، وانه قد بلغ تلك المرحلة بالاستدلال والفكر والمنطق. ولكنهم، مع ذلك، لم يكونوا يقنعون بذلك، بل كانوا يقولون ان هناك نوعين من الحكمة:

١ ـ الحكمة النظرية، وهي معرفة العالم كما سبق ذكرها.

٢ ـ الحكمة العملية، وهي هيمنة الانسان التامة على جميع غرائزه وقواه وطاقاته. اذا كنتم قد قرأتم كتب الاخلاق عندنا لوجدتم انها تستند على هذه الناحية اكثر. اي ان اخلاقنا هي الاخلاق السقراطية، حيث الاتكاء يكون على العقل. فهل عقلك هو الذي يحكم شهوتك؟ أم شهوتك هي التي تحكم عقلك؟ هل عقلك يسيطر على غضبك، أم ان غضبك هو المسيطر على عقلك؟ هل عقلك يكبح خيالك، أم ان خيالك متسلط على عقلك؟ فعندما تقول انك في الحكمة النظرية قد استطعت تصور العالم بالاستدلال والمنطق، كما سبق، وانك

في الحكمة العملية قد حكمت عقلك على نفسك بحيث تكون النفس والقوى النفسانية تابعة للعقل ، عندئذ تكون انت انساناً كاملاً. هذه هي مدرسة العقل والحكمة.

والمدرسة الاخرى ذات المنظور الخاص الى الانسان الكامل هي مدرسة العشق. مدرسة العشق ـ وهي مدرسة العرفان والتصوف ـ ترى كمال الانسان في العشق وفيما يوصل العشق الانسان اليه. والمقصود بالعشق في هذه المدرسة هو الله. ان هذه المدرسة بخلاف مدرسة العقل التي هي مدرسة الفكر ، لا مدرسة الحركة ، اذ الحكيم لا كلام له على الحركة ، بل كلامه على الفكر ، وكل الحركات يراها حركة الذهن. اما مدرسة العشق فهي مدرسة الحركة ، ولكنها حركة صعودية ، حركة عمودية لا افقية ، وان كانت تتحول فيما بعد الى حركة افقية ، ولكن الانسان وهو في اول طريق البحث عن الكمال يجب ان تكون حركته صاعدة عمودية ، اي باتجاه الله. انهم يعتقدون ان القول ليس قول الفكر ، ولا قول العقل ، ولا قول الاستدلال ، بل القول قول الروح ، وهم يعتقدون ان روح الانسان تتحرك فعلاً حركة معنوية حتى تصل الى الله. هذه المدرسة تستقبح مدرسة العقل. ان قسماً من آدابنا الرفيعة يدور حول المناظرة بين العقل والحب ، والذين خاضوا هذا الميدان كانوا ، في الأعم الأغلب من رجال التصوف والعرفان ، فجعلوا

الحب ينتصر على العقل. هذه المدرسة ترى انه لكي يصل المرء الى كماله الإنساني لا يكفيه ان يعتمد على العقل وحده ، لأنهم يقولون ان العقل ليس سوى جزء من الانسان ، فلا يمكن ان يكون العقل وحده هو كل الانسان. ان العقل ، كالعين وسيلة واداة. اما ذات الانسان وجوهره فهي الروح ، والروح من عالم الحب ، وهي جوهر ليس فيه سوى التحرك نحو الله. ولهذا فهم يرجحون الحب والسكر على العقل ، وكما جاء في بعض اشعار حافظ ، فان للتوحيد عندهم معنى آخر انه بمعنى وحدة الوجود ، وهو توحيد اذا بلغه انسان لاتخذ كل شيء شكلاً ربانياً ، ولا يكون هناك غير الله والانسان. في هذه المدرسة يصبح الانسان الكامل في النهاية هو الله ، بل ان الانسان الكامل الحقيقي هو الله ، وان بلوغ الانسان مرحلة الكمال الانساني يعني انه قد فني واتحد في الله.

هنالك مدرسة اخرى بخصوص الانسان الكامل ، وهي مدرسة لا تتكىء على العقل ، ولا على العشق بل هي تستند على القدرة ، فالانسان الكامل في هذه المدرسة هو الانسان المقتدر ، فالكمال هو الاقتدار ، هو القوة ، مهما تكن مفاهيم القوة متنوعة.

كان في اليونان جماعة يطلق عليهم اسم السفسطائيين. وقد

بين هؤلاء رأيهم بهذا الشأن بكل صراحة ، فقالوا: الحق هو القوة ، وحيثما تكون القوة يكون الحق ، فالحق مع القوة ، والضعف يعني عدم وجود حق ، وعدم الاحقية. هؤلاء لا يرون للظلم والعدالة اي مفهوم ، ولذلك فالقوة عندهم هي الحق وان الحق ناشىء من القوة ، ويرون ان على الانسان ان يبذل كل جهده للحصول على القوة والقدرة فحسب ، بغير ان يضع اي حد او قيد على اكتساب القوة لنفسه.

هذه المدرسة احياها مؤخراً (نيتشه) الفيلسوف الألماني المعروف ، وراح يتابعها بمنتهى الصراحة. يقول هو واتباعه انه لمن الهراء تمجيد الصدق والاستقامة والامانة ، وانه لمن السخف القول بالانسانية وبطيبة الانسان ، وبانك يجب ان تأخذ بيد الضعيف. أثمَّةَ ذنب اكبر من الضعف؟ وبما ان الضعيف ضعيف فعليك ان تصكه بحجر.

يرى نيتشه ـ الذي كان ضد الدين ـ ان الدين قد اخترعه الضعفاء ، بخلاف كارل ماركس الذي يعتقد ان الدين قد اخترعه الاقوياء ليأسروا به الضعفاء. ولكن نيتشه يقول بالعكس ، ان الدين قد اخترعه الضعفاء لكي يحدوا من قوة الاقوياء ، وان الخيانة التي يرتكبها الدين بحق البشرية هي انه يشيع بين الناس مفاهيم مثل التسامح ، والجود والروح ، والمروءة، والانسانية ، والطيبة ، والعدالة ، وامثالها مما خدع به

الاقـوياء الـذين اضطروا الى التنـازل عن بعض قـوتهم بـاسم الانسانية والعدالة والجود والتسامح .

يقول: انهم يطلبون منا ان نقول مجاهدة النفس ، وتربية النفس والتربية الـروحية والمسـاواة. هذا كله خـطأ. ما معنى المساواة؟ لا بد ان تكون هناك دائما طبقة محكومة ، وان تكون هنـاك دائما طبقـة حاكمـة ، وان على المحكومين ان يهلكـوا انفسهم لخدمة الحاكمين حتى ينمو هؤلاء ويظهر بينهم الرجل السامي الأعلى.

ويقول ايضا: يقولون بالمساواة في حقوق الرجل والمرأة. هذا ايضا خطأ. ان جنس الرجل ارفع من جنس المرأة وأقوى. لقد خلقت المرأة لخدمة الرجل ليس غير ، وما من هدف آخر وراء خلقها.

ترى هذه المدرسة ان الانسان الأسمى ، الانسان الأعلى ، الانسان الكامل ، يعني الانسان الاقـوى والانسان القـادر. ان امثال هذه الافكار تشيع بين بعض المسلمين الجهلاء بغير ان يعوا معانيها. فقد نعترف احيانا بأن الحياة تنازع على البقاء ، وهذا ليس صحيحاً. اما التنازع على البقاء بمعنى الدفاع عن النفس فأمر مشـروع وحق. ولكن بعض العلماء ، مثـل فريـد وجدي ، يقول ان الحرب بين البشر ضرورة ، وما دام هناك بشر

فلا بد ان تقع الحرب فيما بينهم ، وهذا ما يعتقد به امثال هؤلاء اعتقاداً جازماً ، باعتباره احد القوانين السائدة في المجتمعات البشرية ، بل ويقولون ان القرآن يؤيد ذلك ، بحسب منطوق الآية:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوات ومَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ﴾[٤٩].

أو الآية:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[٥٠].

فها هو القرآن يعتبر الحرب امراً مشروعاً صراحة. الا ان هؤلاء فهموا الآية القرآنية فهماً غلطاً. فالقرآن يطرح موضوع الدفاع في قبال المسيحية ، في قبال ذلك القسيس الذي يقول ان الحرب مردودة مطلقا وان المسيحية تتمسك بالسلام. يقول القرآن ان الحرب مردودة ، اذا كانت عدوانية. اما الحرب الدفاعية التي تدافع عن الحق والحقيقة ، فانها تختلف. ولولا الحرب الدفاعية لما استطعت ، انت ايها القسيس المحترم ، ان

٤٩ ـ سورة الحج ، الآية ٤٠.

٥٠ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥١.

تـذهب الى الكنيسة للعبـادة ، وذاك المؤمن الـذي يصلي في المسجـد ، لـم يكن ليقدر عليهـا ، اذ ان عبادتـه في المسجد مرهونة بشجاعة ذلك الجندي الذي يدافع عن الحق والحقيقة. كذلك القسيس المسيحي الذي يؤدي طقوسه الدينية في الكنيسة بكل اطمئنان ، ينبغي عليه ان يشكر ذلك الجندي ايضا.

وعليه ، ليس ثمة ما يمنع من ان يصل البشر الى مرحلة من الكمال والتربية بحيث لا يبقى أثر للعدوان ولا وجود لمعتد. اذ بانعدام المعتدي تنعدم اسباب الحرب المشروعة. لذلك ، فان ما يعرف في الاسلام باسم المجتمع المثالي ، هو حكومة الامام المهدي عجل الله فرجه.

وانها لقصة عجيبة! ففي قراءاتي حول الموضوع لاحظت انه طريق لاحب لمعرفة المجتمع المثالي في الاسـلام ، ففي ذلك الزمان يتآلف حتى الوحوش المفترسة وتعيش في وئام ، وتزول الحروب الى الأبد. أي ان الناس يصلون الى حـد من الكمال لا يكون فيه للمعتدي وجود ، فلا تكون حرب.

وعليه ، فان القول بأن الحياة تنازع للبقاء ، وان هذا التنازع على البقاء أمر حتمي ، ليس قولاً صحيحاً. ثمة قولة تنسب الى الامام الحسين (ع) مع انها ليست صحيحة في المعنى ، ولا هي منسوبة اليه في اي كتاب ، ولم تظهر على الافواه الا منذ حوالى

الاربعين او الخمسين سنــة. وهـذه العبــارة التي تنسب الى الحسين هي : «ان الحياة عقيدة وجهاد!» هذه المقولة تنسجم مع المنحى الغربي في التفكير ، اذ انهم يقولون ان على الانسان ان يحمل عقيدة وان يحارب في سبيلها. ان ما يرد في القرآن انما يخص الحق ، والجهاد في القرآن وفي الحياة يكون في سبيل الحق ، في سبيل الله ، لا في سبيل العقيدة.

فـالعقيـدة تكـون حقـا وتكـون بـاطـلا. والعقيـدة ، هي الانعقاد ، وهذه مدرسة اخرى ترى ان على الانسان ان يحمل عقيدة ، او طموحاً ، او مثالا ، وان يسعى في سبيل تحقيقه ، بصـرف النظر عمـا اذا كانت تلك العقيـدة صوابـا او مجـانبـة للصواب. اما القرآن فكلامه محسوب وموزون ، لذلك يقول ان الجهاد يكون في سبيل الحق ، لا في سبيل العقيدة، واذا كان الجهـاد في سبيل العقيـدة ، فالـواجب اولا تصحيـح العقيـدة نفسها.

بل كثيرا ما يلزمك ان تعلن الجهاد على عقيدتك نفسها، اذ تتبين خـطلها، فتسعى لنيـل عقيدة صحيحـة حقـا. وبعـد ان تكتشف الحق، تبدأ بالجهاد في سبيله.

على كل حال، ان القول بأن الانسان الكامل هو الانسان القوى، انما يستند الى مقولة تنازع البقاء التي جاءت في فلسفة داروين التي تقول ان الحياة تنازع على البقاء، وان الحيوانات

دائمة التنازع على البقاء، والانسان منها.

اننا لا نستطيع ان نعتبر الانسان يجري مجرىٰ الحيوانات بهذا الشأن، فنقول ان الحياة للانسان تعني حرباً دائمة في سبيل البقـاء، وذلك لأن معنى هـذا الكلام هـو وجود التعـاون على البقاء، فهم يقولون ان التعاون قد اوجده التنـازع على البقاء. فعندما يقولون: ان الحياة تنازع على البقاء، نقول اذن ما معنى هذا الذي نـراه بين البشر من الصـداقة الحميمة، والوحـدة، والتعاون، والمحبة، فيقولون: انكم مخطئون، اذ تحت هـذه الصميميـة والمحبـة يكمن تنـازع البقـاء. فنسـأل: وكيف؟ فيقولون: ان الحرب مبدأ من مبادىء حياة الانسان، ولكنه عندما يجد نفسه امام عدو أقـوى، فان هـذا العدو يضـطره الى تلك المحبة والصميمية، ولكنها في الواقع ليست محبة ولا صميمية، ولا يمكن ان تكون. انما هي تعاون للوقوف بوجه عدو اكبر، كقضية من قضايا التناقض. عندما يظهر عدو اكبر، يظهر التعاون والحب وما الى ذلك للوقوف بوجهه. فاذا ازلت هذا العدو من امامهم، رأيت جمعهم بددا، وشملهم متفرقاً، وعادوا اعداء فيما بينهم، يخاصم بعضهم بعضاً حتى لا يبقى غير اثنين، واذا رأى هذان أن لا عدو مشترك بهما يخاصمانه، راحا يتخاصمان فيما بينهما. فكل ما هنالك من محبة وصفاء وتعاون وانسانية ووحدة واتحاد وغير ذلـك ينشأ من العـداء، وعليه، فـان الاصل هـو

التنازع، والتعاون وليد التنازع وينشأ عنه.

وكما رأينا ان هناك من ينكر مدرسة العقل ويقف ضدها، وكما رأينا ان هناك من ينكر مدرسة العشق ويقف ضدها، نرى ان لمدرسة القوة نقطة مقابلة تحتقر القوة الى حد الافراط، بحيث يرون ان كمال الانسان في ضعفه، وان الانسان الكامل هو الانسان الذي لا قوة له، وذلك لأنه اذا امتلك القوة استعملها للعدوان.

سعدى يرتكب هذا الخطأ نفسه اذ يقول في بعض شعره:

من آن مورم كه دريايم بمالند
نه زنبورم كه از نيشم بنالند
چگونه شكر اين نعمت گذارم
كه زور مردم آزارى ندارم

(انا تلك النملة التي تداس بالاقدام
لا الزنبور الذي يئنّون من لسعه)
(كيف أؤدي الشكر على هذه النعمة
بكوني لا املك القدرة على ايذاء الناس)

كلا، ليس الأمر في ان الانسان اما ان يكون نملة او زنبورا، حتى يقول: اذا كان لا بد ان يكون الانسان نملة او زنبورا، فاني اختار ان اكون نملة. ما الذي يدعوك ان تكون نملة تدوسها الاقدام، او زنبورا يلسع الناس؟ بل ينبغي ان يقال:

نه آن مورم که درپایم بمالند

نه زنبورم که ازنیشم بنالند

چگونه شکر این نعمت گذارم

که دارم زور وآزاری ندارم

(ما انا نملة تداس بالاقدام

وما انا زنبور يئنون من لسعه)

(كيف أؤدي الشكر على هذه النعمة

بكوني املك القدرة ولا اؤذي الناس)

ان ما يستحق الشكر هو ان تكون للانسان القدرة والقوة ولا يؤذي الناس، اذ لا فخر في ان لا تكون في المرء قوة، فلا يكون فيه اذى. فانت اذا لم تكن لك قرون فلا فخر في انك لا تنطح، انما الفخر في ان تكون لك قرون ولا تنطح ابدا.

او يقول:

بديدم عابدی در کوهساری

قناعت کرده از دنیا بغاری

چرا گفتم به شهراندر نیائی

که باری پند ازدل برگشائی

(رأيت عابدا في الجبال

قد قنع من دنياه بغار)

(فـقـلـت: لـم لا تـنـزل الـمـديـنـة
فلعلك تزيل عن قلبك قيدا)

انه يمجد عابداً قد اعتكف في كهف في الجبل حيث يتعبد الله ، ويقول : قلت له لماذا لا تنزل الى المدينة لتخدم الناس .

ولسعدي في شعره عكس هذا ايضاً ، إذ يقول :

صـاحبـدلى بـه مـدرسـه آمـد زخـانقـاه
بشكـست عـهـد صحبت اهـل طـريـق را
گفتم ميـان عـالم وعـابـد چـه فـرق بـود
تـااخـتـيـار كـردى از آن ايـن فـريـق را
گفت ان گليم خـويش بـرون ميبـرد زمـوج
اين سعـى ميكنـد كـه بـگيـرد غـريـق را

(جاء عـابـد من صـومعتـه الى المـدرسـة
نـاكثـا عهـد الصحبـة مـع رفـاق الـطريق)
(فقلت: مـا الفـرق بين العـالم والعـابـد
حـتى اختـرت هـذا على اصحـابـك؟)
(فـقـال: ذاك يخـرج بسـاطـه من اليـم
وهـذا يـسـعـى لانـقـاذ الـغـريـق)

ان ما يقول به من فرق بين العالم والعابد صحيح ، ولكنه يبدو في البيتين السابقين وكأنه يتقبل عذر العابد الذي دعاه للنزول الى المدينة، اذ يقول:

بكفت آنجا پريرويان نغزنند
چوگل بسيار شد پيلان بلغزنند
(قال: هناك ذوات الجمال كثر
وحيث يكثر الطين تزل الفيلة)

اي ان المدينة يكثر فيها الحسناوات، فلا يستطيع ان يكبح نفسه عند النظر اليهن، فجاء وحبس نفسه في هذا الغار. ما شاء الله! هل الكمال الانساني هو ان يحبس نفسه عن المجتمع؟ ليس هذا من الكمال في شيء. ان القرآن يقص عليكم احسن القصص، أي قصة يوسف، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾[٥١]. انه يريدك ان تكون يوسف، الذي توفرت له كل ظروف التنعم والاستمتاع، وتحت تصرفه كل الامكانات والقدرات، والابواب مغلقة عن المتطفلين، ومع ذلك يحافظ على عفته، فيفتح الابواب. انه شاب اعزب، جميل مفرط الجمال، وبدلا من ان يبحث هو عن المرأة، تأتي المرأة لتبحث عنه، لا يمر اليوم بغير ان تصله آلاف الرسائل وآلاف الرسل، ويقع في غرامه نساء الطبقة الرفيعة في مصر . هكذا يصور القرآن الدرس. كل الظروف مهيأة، ويتهدده خطر الموت: فاما ان تخضع واما ان تنال عقاب الموت ويراق دمك. فما الذي يفعله

---

٥١ ـ سورة يوسف، الآية ٩٠.

يوسف؟ انه يرفع يده الى الله ويقول:

﴿ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ اليَّ مِمّا يَدْعُونَنَي إلَيْهِ، وإلاّ تَصْرِفْ عَنّي كَيْدَهُنَّ أَصِبُ إلَيْهِنَّ﴾[٥٢].

انه قوي وقادر على اشباع شهوته، ولكنه لا يفعل. اذن، فكمال الانسان ليس بضعفه، . ولكننا كثيراً ما نلاحظ في شعرنا وادبنا افكارا تفيد بأن كمال الانسان بضعفه. من ذلك قول الشاعر الهمداني بابا طاهر العريان:

زدست ديده ودل هردوفرياد
هر آنچه ديده بيند دل كند ياد
بسازم خنجرى نيشش زفولاد
زنم برديده تادل گردد آزاد

(آه من العين والقلب كليهما
فما تراه العين يهواه القلب)
(فلأصنع خنجراً نصله من فولاذ
اطعن به العين ليتحرر القلب)

حسن، فانت قد تسمع ايضا اشياء فيريدها القلب، فتصنع خنجراً آخر لتقطع اذنك... ما اعجب الانسان الكامل الذي يصطنعه الشاعر، ذلك الانسان الذي اعمى نفسه وقطع يده

---

٥٢ ـ سورة يوسف، الآية ٣٣.

ولسانه واذنه ولم يبق فيه من الجوارح شيء!

هناك الكثير في زوايا آدابنا من هذه الاخلاقيـة التي تربي الضعف والذل، الا ان هذا ناشيء من الخطأ الـذي يقع فيـه الادباء والشعراء، فهم بشر، على كل حـال، وقد يقعـون بين الافـراط والتفريط. ولكن عنـدما يقـارن المرء هـذه المذاهب والمدارس بالمدرسة الإسلامية يجد ان المدرسة الإسلامية لا يمكن الا ان تكون من عند الله. فاذا كان المرء سقراط واعتزل في مكان ما، فانه يكون على خطأ، واذا كان افلاطون وانزوى عن الناس، يكون ايضا على خطأ، واذا كان ابن سينا واعتكف في زاويـة يكون على خـطأ، ومحي الدين العـربي اذا تجنب المجتمع يكون على خطأ، وكذلك الأمر مع سائر علماء العالم. اذ كيف يمكن ان يكون النبي بشراً ذا فكر بشري ونظرة بشرية، ثم يتقدم بهذه المدرسة الرفيعة الجامعة والمتقدمة، بحيث يبدو كل هؤلاء العلماء ازاءه صبيانا، ويكون هو المعلم الذي يقول كلمته في الآخر بكل جلال.

تلك كانت احدى المدارس، وتقابلها المدرسة التي تقف ضد القوة. هنالك ايضا مدرسة اخرى تحمل نظرة عن الانسان الكامل، يمكن ان نطلق عليها اسم مدرسة المحبة او مدرسـة معرفة النفس. فقد وجدت في شرق آسيا منذ آلاف السنين افكار رفيعـة. وما زلنـا نحتفظ بالكتب الهنـدية القـديمة جـدا والتي

ترجمت الى الفارسية، بالاضافة الى «الاپاني شاد» وهي رفيعة جدا.

هذه الكتب كان قد قرأها استاذنا العلامة الطباطبائي قبل بضع سنوات وحازت على اعجابه اذ كان يقول ان فيها امورا رفيعة جدا، وان لم تستلفت النظر اليها. في هذه المدرسة تكون معرفة النفس محور جميع الكمالات الانسانية. أعرف نفسك. طبعا اعرف نفسك. لقد قال سقراط بذلك ايضا، وجميع الانبياء، بما فيهم نبي الإسلام، قالوا: اعرف نفسك.

«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[٥٣].

ولكن هذه المدرسة لا تستند الا الى هذه النقطة وحدها.

لغاندي كتاب مترجم يضم مجموعة من مقالاته ورسائله، تحت عنوان «هذا مذهبي» وهو كتاب جيد في نظري. في بعض من هذا الكتاب يقول غاندي: انني بعد مطالعاتي لكتب «اپاني شاد» توصلت الى معرفة ثلاثة مبادىء، غدت منهاج عملي في الحياة:

المبدأ الاول الذي يذكره غاندي هو ان هناك حقيقة واحدة وهي معرفة النفس (لقد جاء في الترجمة الفارسية معرفة الذات،

---

٥٣ ـ غرر الحكم، حرف الميم.

وهذا خطأ حصل من اقتراب معنى الذات من معنى النفس) وعلى هذا المبدأ يبني غاندي هجومه الرائع على دنيا الغرب، ويقول: ان الغربي قد عرف دنياه ولكنه لم يعرف نفسه، وبما انه لم يعرف نفسه، فقد انزل التعاسة بنفسه وبالدنيا.

والمبدأ الثاني هو: من عرف نفسه فقد عرف الله، وعرف الآخرين.

اما المبدأ الثالث فيقول: لا توجد سوى قوة واحدة، وهي قوة السيطرة على النفس، ومن سيطر على نفسه كانت سيطرته على الاشياء الاخرى صحيحة ومكينة. ولا توجد سوى طيبة واحدة، وهي ان يحب الانسان لغيره ما يحبه لنفسه، وان يكره لغيره ما يكره لنفسه.

اساس الفلسفة الهندية هو معرفة النفس، وترك رغباتها ومراقبتها، واكتشاف حقيقة النفس، ومن هذا الاكتشاف تنشأ المحبة. اذن، فالانسان الكامل عند اصحاب هذه المدرسة هو الذي يعرف نفسه وبعد معرفة نفسه يسيطر عليها، ومن ثم يكون محبا للآخرين.

وفي عصرنا الحاضر، أي خلال القرنين او الثلاثة قرون الاخيرة، ظهرت مدارس اخرى بهذا الشأن ومعظمها يتجه اتجاهاً اجتماعياً.

احدى هذه المدارس تعتبر الانسان الكامل هو ذلك الانسان اللاطبقي، وذلك لأن الانسان الطبقي، وخاصة الذي ينتمي الى الطبقات العليا، لا يخلو من عيب، بل لا يمكن العثور في المجتمعات الطبقية على انسان سليم لا عيب فيه، وعليه فان الانسان الكامل هو الانسان الذي لا ينتمي الى اية طبقة، الانسان الذي يحيا في حالة متساوية مع الناس الآخرين.

وهناك مدرسة اخرى تعتمد الحرية والوعي، ويخصون بالذكر الوعي الاجتماعي، كالوجود بين الذين يستندون، اكثر ما يستندون، على الحرية والوعي والمسؤولية الاجتماعية. الانسان الكامل هو الانسان الحر، الانسان الواعي، الانسان الملتزم، الانسان المسؤول. وان من لوازم الحرية حالة من حب الخصام، وهذا بحد ذاته مذهب آخر.

وخلال ذلك يمكن القول بوجود مدرسة اخرى هي مدرسة اللذة والاستمتاع، وهي لا تبتعد كثيراً عن مدرسة القوة. تقول هذه المدرسة: انه لهراء وتفلسف ان نقول ان الانسان الكامل يجب ان يكون حكيماً، او انه يصل الى الله. ان الانسان الكامل هو الانسان المتمتع. اذا كنت تريد ان تكون انساناً كاملاً فعليك ان تتمتع بهبات الطبيعة، وكلما كان تمتعك أكبر، كنت الى الانسان الكامل أقرب.

وحتى اولئك الذين يرون كمال الانسان بالعلم، لا بالحكمة، ويرون ان العلم هو معرفة الطبيعة ومعرفة الطبيعة تستهدف السيطرة عليها لخدمة الانسان ولفائدته، فانهم يرجعون آخر الأمر الى القول بأن قيمة العلم في كونه وسيلة وليس لذاته، فالعلم انما يكون مطلوباً ليوصل الانسان الى السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الانسان الذي يستطيع في تلك الحالة ان يستمتع بخيرات الطبيعة على افضل وجه. فاذا شئت ان توصل الانسان الى كماله، عليك ان تسعى لايصاله الى حيث يتمتع بخيرات الطبيعة، اذ ليس ثمة كمال انساني الا في التمتع بالطبيعة، اما القول بقيمة ذاتية للعلم وتقديسه واعتباره ذاتياً، فكله هراء، فما العلم الا وسيلة واداة لا غير، وهو للانسان كالقرون للبقر او المخالب والأسنان للسباع، أي انه اداة للانسان وبيد الانسان.

هذه مجموعة من النظريات حول الانسان الكامل. ولسوف نبين وجهة نظر الإسلام في كل واحدة منها، ليتبين مقدار القيمة التي يقول بها الإسلام للعقل، وللقوة، وللمسؤولية الاجتماعية، وللمجتمع اللاطبقي، فلكل من هذه حكاية مسهبة. ولا شك في ان احد مظاهر الكمال الانساني هو طريقة تقبله الموت، وذلك لأن الموت، والتفكير في الموت، وتخيل الموت، والخوف من الموت، نقاط ضعف كبيرة في الانسان، فكثير من تعاسات

الانسان يسببها الخوف من الموت، كالخنوع، والضعة والدناءة وآلاف اخرى من الاتجاهات الذميمة كلها تنشأ خوفاً من الموت.

اذا لم يخش الانسان الموت فحياته بأسرها تتغير. ان الرجال العظام، العظام حقاً، هم اناس واجهوا الموت بكل جرأة وشجاعة، بل بأرفع من ذلك، فبالابتسامة تعلو وجوها متفتحة راحوا يستقبلون الموت، ولكن لا الموت الذي يكون انتحاراً، بل الموت الذي يكون من اجل هدف، لانهم يحسون ان عليهم تقع مسؤولية ايصال رسالة في هذه الحياة، بينما الانتحار يعني التخلي عن المسؤولية، ولكن العظيم يرى الموت في سبيل الاضطلاع بالمسؤولية شرفاً وسعادة.

بديهي ان هذا النوع من مواجهة الموت يختص به اولياء الله، اولئك الذين ليس الموت لهم بأكثر من الانتقال من دار الى دار، او كما قال الامام الحسين (ع): «ما الموت الا قنطرة تعبرها» وكما قال ايضا:

«لا أرى الموت الاّ سعادة والحياة مع الظالمين الا برما».

يقول احد طلائع جيش عمر بن سعد، والذي كان يوصل اخبار تحركات الحسين اليه: «والله لقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله»، وقد كان الحسين ذاهباً الى الموت المحقق.

هذا هو نموذج الانسان الكامل. إنَّ لأمثال هؤلاء جاذبية خارقة للعادة، ودافعة خارقة للعادة ايضا، لان لهم اصدقاء مفتونون بهم، واعداء خبثاء ألداء يعرفون الحق حقا ويخالفونه. من هؤلاء العظام كبار الاولياء المسلمون، فقد كانوا أمثلة للانسان الكامل وقدوة يتأسّىٰ بهم الناس في مجتمعهم.

اذن، كما قلنا، الانسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن ان ينفصل عن ذاته. ان الصخرة لا تكون صخرة بغير ان تكون صخرة، ولا القطة تكون قطة بغير حالة القطية فيها، ولا الكلب بغير الكلبية ولا النمر بغير النمرية. فكل نمر في العالم يتصف بصفات غريزية هي التي تمنحه التسمية بالنمر. انما الانسان هو وحده الذي ينبغي عليه ان يعمل لبلوغ انسانيته، كما ان انسانية الانسان لا علاقة لها بالجوانب الحياتية البايولوجية. اي ان ما اطلق عليه اسم الانسانية منذ القديم، وما يسمى احيانا بالآدمية، ليس هذا الكائن الحياتي او الكيان الطبي، اذ ان صفاته البايولوجية لا تكفي لكي نطلق عليه اسم انسان، لأن انسانية الانسان شيء آخر، ولا كل طفل يولد انساناً. فكما انه لا يولد عالماً بل يكون عالماً بالقوة، كذلك هو لا يولد انساناً، بل هو انسان بالقوة، لا بالفعل. ولكن عندما تطرح المسألة بهذا الشكل، وان على كل امرىء ان يصبح انساناً، فيبرز التساؤل عن ماهية الانسانية ان الانسانية ليست مما يمكن ان يشرحه لنا

عالم حياتي، ولا طبيب أبدان، انما هي أمر لا يستطيع انكاره حتى اشد المدارس اغراقاً في المادية. انها امر معروف ولكن لا يمكن قياسه بأي معيار مادي ولهذا قلنا ان الانسان يكون نفسه باباً للمعنوية لنفسه.

نبدأ بحثنا بمدرسة العقليين. كان الفلاسفة القدامى يرون ان جوهر الانسان هو عقله، وان الأنا الحقيقية للانسان هو عقله. ومثلما ان جسم الانسان ليس جزءاً من شخصيته، كذلك قواه الروحية واستعداداته النفسية ايضا ليست جزءاً من شخصيته، اذ ان شخصية الانسان الحقيقية هي تلك القوة التي تفكر، فالانسان هو ذلك الذي يفكر، لا ذلك الذي يرى. ان الذي يرى انما هو اداة بيد الذي يفكر، لا بيد الذي يتخيل، لأن هذا اداة بيد الذي يفكر، لا الذي، مثلا، يريد ويحب ويشتهي ويغضب. جوهر الانسان هو الفكر، والانسان الكامل هو الذي يكون قد وصل في التفكير الى حد الكمال، ومعنى وصوله في التفكير الى حد الكمال هو انه يتلقى عالم الوجود كما هو. هناك في هذه المدرسة أمر آخر يلفت النظر، وهو ان العقل قوة قادرة على اكتشاف العالم ودركه كما هو، وان تعكس في نفسها حقيقة العالم كما هو، كالمرآة تستطيع ان تعكس صورة العالم بشكله الصحيح.

يقول الفلاسفة المسلمون الذين يؤيدون هذا الرأي ان

الايمان الإسلامي، الايمان الذي ورد في القرآن، هو هذا، هو معرفة العلم ككل وكما هو. ان معرفة مبدأ العالم، ومعرفة جريان العالم ومعرفة نظام العالم، ومعرفة منتهى العالم، الذي يطلق عليه القرآن اسم الايمان بالله، والايمان بملائكة الله الذين هم وسائط الوجود ودرجاته، والايمان بمخلوقية العالم، والايمان بان الله لم يهمل العالم بل يهديه (ومن ذلك هداية الانبياء للبشر) والايمان بان كل شيء من الله واليه يرجع واسمه المعاد، يقولون ان هذا هو ذاك وليس غيره. يفسر هؤلاء الفلاسفة الايمان بأنه المعرفة وانه الحكمة، ولكنها معرفة فلسفية حكيمة، لا المعرفة العلمية التي تعني المعرفة الجزئية، بل المعرفة الفلسفية الكلية، وهي معرفة مبدأ العالم ومنتهاه، ومراتب الوجود ومسيراته الكلية، ان نكتشفها ونعرفها.

هذه المدرسة، مدرسة العقليين، كانت تعارضها مدارس اخرى. والمدرسة الأولى التي عارضتها من حيث المسيرة الإسلامية هي مدرسة الاشراقيين المتصوفة، مدرسة العشق، وسوف نشرح ذلك فيما بعد.

والمدرسة الاخرى هي مدرسة اهل الحديث والاخباريين، وهذه المدرسة تعارض العقليين، قائلة ان العقل لا يستحق هذا القدر الكبير من التقدير الذي تولونه له.

واشد من هذه المدرسة على العقل تأتي المدرسة الحسية في العصر الحديث التي ظهرت ضد العقل ولاقت رواجا خلال القرون المتأخرة، وهي تقول: ليس للعقل تلك الاهمية التي تقولون بها فالعقل تابع للحس، والحواس والمحسات هي الأصل في الانسان. ان كل ما يفعله العقل هو انه يجري بعض العمليات على ما توصله الحواس. تصور معملا يدخلون فيه بعض المواد الخام، فتقوم اجهزة المعمل بتحليل تلك المواد. فاذا كان المعمل خاصاً بالغزل والنسيج، يقوم المعمل بتنقية القطن وتنظيفه ثم يحوكه بشكل معين. والعقل معمل لا يستطيع ان يقوم بعمل ما، سوى انه يجري بعض العمليات على المواد الخام التي ترده عن طريق الحواس. ولكن هذا الكلام لم يقلل من اهمية المدرسة العقلية التي ما زالت قائمة على قدميها. الا اننا لا نريد هنا ان نعقد مقارنة بين المدرسة العقلية والمدارس غير العقلية، بالتفصيل، انما نريد ان نبين وجهة نظر الإسلام.

في المدرسة العقلية عدة مواضيع، علينا ان ندرسها موضوعاً موضوعاً لنرى ان كانت تنطبق مع وجهة نظر الإسلام.

الموضوع الأول في المدرسة العقلية مسألة المعرفة العقلية واصالتها. فما معنى هذا؟ هذا معناه ان عقل الانسان قادر على اكتشاف حقائق هذا العالم، وان المعرفة العقلية معرفة اصيلة وموضوع اعتماد ويمكن الاستناد اليها ومعتبرة. كثير من

المدارس لا يمنحون العقل هذا الاعتبار والتقدير. فلننظر هل في النصوص الإسلامية ما يعطي العقل هذا الاعتبار والمنزلة؟ اننا نصادف في النصوص الإسلامية ما يؤيد العقل ويمنحه حمايته بما لا نجد مثيلاً له في أي دين من الاديان في العالم. ان الإسلام يؤكد سندية العقل وحجيته الى مدى لا نظير له. قارن الإسلام بالمسيحية. فالمسيحية لا تسمح للعقل في التدخل في مسائل الايمان، وتقول: في الأمور التي يجب ان يؤمن بها الانسان لا يحق للفكر ان يفكر فيها. ان للعقل ان يفكر، ولكن ليس في هذه الأمور، فما ينبغي ان نؤمن به ينبغي ألا نفكر فيه، وألا نجيز للعقل الدخول في السؤال والجواب. ان وظيفة القسس ورجال الدين هي ان يقفوا بوجه هجوم العقل والاستدلال العقلي لكيلا يصل الى حوزة الايمان. ان المسيحية مبنية على هذا الاساس.

اما في الإسلام فالحالة على عكس ذلك تماما. ففي اصول الإسلام، وفي اصول الدين، لا يحق لغير العقل ان يتدخل. فمثلاً عندما يسألونك عن احد اصول الدين، ما هو؟ تقول: التوحيد، اي وجود آله واحد. حسن، ما دليلك على الايمان بذلك؟ فان كان دليلك غير الدليل العقلي، فهو غير مقبول. فاذا قلت: انا اعرف هذا وأقبل بأن الله واحد، ولكن لا دليل عندي، وليس هذا من شأنك، بل عليك ان تأخذ الغايات وتترك

المبادىء، وهذا ما تقوله جدتي وانا موقن بقولها، وهـا انا في النهاية مؤمن بشيء، وان يكن استنادا على قول جدتي، او رأيت ذلك في المنام، او لأن ابي قال ذلك اذا قلت هذا فان الإسلام يرفضه، ويقول: كلا، ان الاعتقاد الذي يبنى على الرؤيا، او على التقليد او على مجاراة المحيط، لا يقبل. اننا لا نتقبل شيئا الا اذا كنت قد توصلت اليه بالتحقيق والتمحيص اللذين ايدهما العقل بالدليل والبرهان. ان اصـول الايمان المسيحي منـطقة ممنوع على العقل دخولها، وواجب القسّيس هو ان يحافظ على تلك المنـطقة من تـطفل العقـل وهجوم قـوى الفكر، امـا في الإسلام فمنطقة الايمان مفتوحة على مصـاريعها امـام العقل، وليس لأي متطفل آخر غير العقل الدخول اليها، وهذا ما ورد في نصوص اسلامية مطولة وعجيبة.

فالقرآن لا يفتأ يذكر العقل، كما ان في اخبارنا واحاديثنا من الكلام على اصالة العقل واهميته بحيث انك اذا ما فتحت اي كتاب في الحديث لوجدت الباب الأول فيه كتاب العقل. فانت اذا رجعت الى (اصول الكافي) فاول كتاب فيه كتاب العقل. وفي كتاب العقل هـذا تجد احـاديث الشيعة من البـداية حتى النهاية تدافع عن العقل. من ذلك قول عجيب عن الامام موسى ابن جعفرعليه السلام:

«عن عبدالله بن سنان قال: ذكرت لأبي عبدالله (ع) رجلا

مبتلى بالوضوء والصلاة، وقلت: هو رجل عاقل. فقال ابو عبدالله (ع): وأيُّ عَقْلٍ لَهُ وَهُوَ يُطيعُ الشَّيْطَانَ؟ فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: سَلْهُ هَذَا الَّذي يأْتِيهِ مِنْ أيِّ شيءٍ هُوَ، فَاَنَّهُ يَقُولُ لَكَ: مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»[٥٤].

فهناك انبياء دعوا الناس الى أنَّ لله حجتين، كل منهما يكمل الآخر. فبالعقل وحده لا يستطيع الانسان ان يعثر على طريق سعادته ويسير فيه. واذا كان الانبياء وحدهم ولم يكن هناك عقل عند الانسان، لا يستطيع الانسان ايضا ان يرى طريق سعادته. فالعقل والنبي كلاهما ينجزان عملا واحدا. وهل اكثر من هذا دفاع عن العقل؟

ان هناك تعابير كثيرة في اكبار العقل وتثمينه. من ذلك القول بأن نوم العاقل ارفع من عبادة الجاهل. وافطار العاقل ارفع من صيام الجاهل. وسكون العاقل ارفع من حركة الجاهل. ان الله لم يبعث نبياً الا بعد ان اوصل عقل ذلك النبي الى الكمال، بحيث يكون عقله أكمل من عقل اي فرد في امته. اننا نسمي رسول الله(ص) بعقل الجميع. ان هذا لا يأتلف ابدا مع

---

٥٤ ـ اصول الكافي، ج١، كتاب العقل والجهل، الرواية ١٠.

البحار، ج٦١، ص٣١٣.

مقدمة جامع الاحاديث الشيعة، ج١.

المسيحية اذ ان العقل والدين في المسيحية شيئان لكل منهما حساب منفصل. ولكننا نسمي نبينا بعقل الجميع ونعرفه بتلك الصفة.

وعليه، فان مسألة اصالة العقـل في المعرفـة، أي حجية العقـل، تعني ان العقـل قـادر على الـوصـول الى المعـرفـة الصحيحة. وهذا الموضوع ـ وهو جانب من منظور الفلاسفة ـ يؤيده الاسلام كل التأييد. فالمنظور الفلسفي يقول ان جـوهر الانسان هو العقل، وكل ما عداه طفيلي ووسيلة واداة للعقل. فاذا وهبنا العين والاذن والحافظة وقوة الخيال والتوهم، وكل قوة وطاقة في هذه الدنيا انما هي قوة واستعداد في الوسائـل التي تستخدمها ذاتنا، وذاتنا هي العقل. فهل نستطيع ان نعثر على تأييد الاسلام لهذه المقولة؟ كلا، ان القول بأن جوهر الانسان هو العقل لا غير، نجد له تأييدا في الاسلام، لأن الاسلام يؤيد تلك النظريات التي يكون العقل فيها جزء من وجود الانسان لا كله.

نلاحظ في الكتب الفلسفية، وحتى عند ملا صدرا الذي يحكي الى حد ما عن اتجاه صوفي، ان هذا الموضوع موجود، وان الايمان الاسلامي يفسر على انه معرفة، اي ان الايمان في الاسلام هو المعرفة فقط. الايمان بالله يعني معرفة الله، والايمان بـالنبي يعني معرفـة النبي، والايمان بـالملائكـة يعني معـرفـة الملائكة، والايمان باليـوم الاخر يعنى معـرفة المعـاد، وكلما

وردت كلمة الايمان فمعناها المعرفة، ولا شيء غير هذا. ان هذا لا ينطبق اصلاً مع ما يقوله الاسلام، ففي الاسلام الايمان حقيقة اكثر من المعرفة. هناك من يعرف الماء، والمعرفة بالشيء هي العلم به. هذا انسان عالم بالماء يعرف الماء، وهذا غيره عالم بالنجوم، فهو يعرف النجوم. وغيره عالم بالمجتمع، يعرف المجتمع، وآخر عالم نفساني يعرف النفس، وآخر عالم بالحيوان، يعرف الحيوان. فما معنى يعرف؟ معناه ان الشيء واضح جلي عنده وهو يدركه. فهل الايمان القرآني يعني المعرفة فقط؟ وهل الايمان بالله يعني ادراك الله فقط؟ وهل الايمان بالنبي معناه دركه فقط؟ كلا. صحيح ان معرفة القرآن ركن من اركان الايمان، فالايمان بغير معرفة ليس ايمانا، ولكن المعرفة وحدها ليست ايمانا. الايمان ميل، والايمان تسليم. في الايمان ينطوي عنصر الميل، وعنصر التسليم، وعنصر الخضوع، وعنصر العلاقة والمحبة. اما في المعرفة فلا تجد عنصر الميل. فان العالم بالنجوم لا يقتضي ان يميل الى النجوم انما هو يعرف النجوم فقط. كذلك الأمر مع العالم بالتعدين الذي يعرف المعادن ولكنه قد لا يميل اليها، والعالم بالماء لا يستتبع ان يحب الماء. بل قد يعرف المرء شيئا وهو ينفر منه. اننا نلاحظ احيانا في السياسة ان العدو يعرف عدوه خيرا مما يعرف نفسه. ففي اسرائيل مثلا قد يوجد من المختصين بالعرب وبالاسلام،

ومختصين بالشؤون المصرية، وبالشؤون السورية، وبالشؤون الجزائرية اكثر مما يوجد في ايران من هؤلاء المختصين. بل قد لا يكون في ايران كلها فرد واحد يمكن ان يقال انه مختص بالشؤون المصرية، مثلا، ولكن اولئك عندهم المئات، وفي مصر ايضا يوجد الكثيرون من المختصين بالشؤون الاسرائيلية، ولكن هل معرفة الاسرائيليين بالمصريين تعني انهم يميلون اليهم؟ الحقيقة هي العكس، انهم يكرهونهم.

يقول علماء المسلمين ان الدليل على ان الايمان الاسلامي ليس المعرفة فحسب، كما يرى الفلاسفة، هو ان القرآن يأتي بأفضل النماذج من ارفع العارفين، ويقول ان ارفع العارفين هم الذين يعرفون الله بأعلى معرفة، ويعرفون الانبياء بأعلى حد، وحجج الله بأعلى حد، والمعاد بأعلى حد وفي الوقت نفسه هم كافرون وغير مؤمنين. فمن هذا؟

انه الشيطان. هل يعرف الشيطان الله، أم انه مادي وملحد؟ ان الشيطان يعرف الله خيرا مني ومنك، ولقد عبد الله آلاف السنين. هل يعرف الشيطان الملائكة أم لا يعرفهم، اولئك الملائكة الذين يأمرنا القرآن بأن نؤمن بهم؟ نعم، ظل آلاف السنين بين الملائكة وفي صف واحد معهم. انه أعرف بجبرائيل مني ومنك. ولكن ماذا بشأن الانبياء؟ هل يعرفهم ايضا ويعرف

انهم انبياء، أم لا؟ نعم، يعرفهم جميعا، وبأفضل مما نعرفهم نحن.

وماذا بشأن المعاد؟ ان كلامه مع الله كثيرا ما يدور حول يوم القيامة، فهو يعرف المعاد تمام المعرفة. اذن لماذا يصف القرآن الشيطان بالكفر ويقول ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾[٥٥]؟ لو كان الايمان، كما يقول الفلاسفة، هو المعرفة وحدها، لكان الشيطان مؤمناً، ولكن الشيطان ليس بمؤمن لأنه عارف جاحد، أي انه يعرف ولكنه في الوقت نفسه يعاند الحقيقة التي يعرفها ويخالفها. انه لا يستسلم لتلك الحقيقة، ولا يميل اليها، وليس له تعلق بها، ولا يتحرك باتجاهها. فالايمان اذن ليس بمجرد المعرفة. يقول كثير من كلمائنا عن سورة:

﴿والتِّينِ والزَّيتونِ وطورِ سِينِينَ وَهَذا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنا الْأنسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ﴾.

فبخصوص ﴿إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقولون: هذه هي الحكمة النظرية، وعن ﴿وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ﴾.

يقولون: هذه هي الحكمة العملية. غير ان في ﴿إلاّ الَّذِينَ

---

٥٥ ـ سورة ص، الآية ٧٤.

آمَنُوا﴾ شيئا أكثر من مجرد حكمة نظرية، انما الحكمة النظرية جزء من ذلك واساسه. انه ليس مجرد معرفة وحكمة وعلم وتلق، بل فيه اكثر من ذلك، فيه التسليم والنزوع والولاء.

وعليه، نكون قد ذكرنا ثلاثة امور في مدرسة العقليين:

١ ـ العقل حجة، وما يتلقاه العقل يوثق به، وللعقل، القدرة على التوصل الى المعرفة الحقة.

٢ ـ العقل وحده ليس جوهر الانسان، والاسلام لا يؤيد هذا القول.

٣ ـ ان القول بان الايمان الاسلامي هو ما يتلقاه العقل، وهو المعرفة، ولا شيء غير المعرفة، ليس صحيحا. لأن الاسلام يرفض ذلك.

هنالك مسألة اخرى وهي: هل للايمان اصالة، سواء أقلنا ان الايمان هو المعرفة، أم اعتبرنا المعرفة جزء من الايمان (وهذا الاخير هو الذي قلنا انه الصحيح)، ام ان الايمان مقدمة للعمل، وليست له اصالة بذاته؟ ههنا ايضا تقف مدرستان كبيرتان تواجه احداهما الاخرى. فما معنى القول بأن للايمان اصالة؟

هل للايمان أصالة لانه هو القاعدة الاعتقادية لعمل الانسان؟ اي من حيث ان على الانسان في هذه الدنيا ان يجدّ ويجتهد وينشط ويجاهد، وان عليه ان يكون في حركة دائبة، الا

ان هـذه الحركـة يجب ان تكون على وفق خـطة ذات هـدف وبرنامج وتكتيك، بما في ذلك الاساس العقائدي، وذلك لأن الانسان، شاء أم ابى، كائن فطري النشاط، فاذا اراد ان يكون له برنامج عمل، وان يصل الى اهدافه في الحياة، لا يتاح له ذلك الا اذا اعطى اساساً فكرياً وعقائدياً بحيث يمكن ان تبنى عليه هذه المباني الفكرية، كالذي يريد ان يبني عمارة او دارا او قاعة، اذ كل هدفه ان تتحقق له هذه الجدران الاربعة، وهذا السقف، وهـذه الابواب، امـا البناء السفلي من الحفـر ووضـع الأسس والارتفاع بها وغير ذلك فليس من ضمن الهدف والمقصود، انما هو لازم لكي يقف البناء ولكيلا ينهار. ففي المذاهب الاجتماعية اليوم، كالشيوعية، مجموعة من المبادىء الفكرية والعقائدية، مبنية على الأسس المادية، وفيها ايضا مجموعـة من المبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والاخلاقية تكـون من حيث البناء قائمة على تلك المبادىء والعقائد المـادية، ولكن هـذه المبادىء والعقائد ليست هي الهدف. والحقيقة ان المادية ليست هي هدف الشيوعي، ولا هي ذات اصالة في نظره. والذين وقعوا في المادية انهمكوا في منازعات حمقى مع الكنيسة فيما يتعلق بالافكار السياسية والاجتماعية، وخاصة في طلب الحرية بحيث ادى ذلك الى ان تظهر في اوروبا الفكرة القائلة بأن الانسان اما ان يكون حراً، ذا حق في المجتمع ويؤمن بحقه، ويتـرك الله جانباً، واما ان يكون معتقداً بالله، متنازلاً عن حريته وعن حقوقه

ثم، لكي يجدوا مخرجاً من ذلك، هدموا الدين من اساسه. فالمادية بحد ذاتها ليست لها اية أصالة عند الشيوعي، ولكنه يظن (وهو على خطأ) انه بغير هذه المادية لا يستطيع تفسير هذه المبادىء الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. اذن، لكي يمكن تفسيرها، يتمسك بتلك الاصول الفكرية والعقائدية ويتابعها.

ولقد ظهر مؤخراً كثير من الشيوعيين في العالم راحوا يحللون. قالوا: ان المادية لا ضرورة لها لنا مطلقاً. اننا نريد الشيوعية حتى بغير مادية. بل هناك الآن عدد من الشيوعيين الذين اخذوا يخففون شيئاً فشيئاً من مقاومتهم الدين، لأنهم لا يرون اصالة في مبادئهم الفكرية، فتلك المبادىء الفكرية لا تزيد عن كونها مرتكزاً عقائدياً واساساً فكرياً مكانه الفكر، بالنظر وانه لا يمكن وجود عقائد ليست لها وجهة نظر في العالم. فهم يجعلون وجهة نظرهم العالمية هذه تحت هذه العمارة لكي يتمكنوا من اقامة سائر العقائد الأخرى فوق ذلك المنظور الى العالم، بغير ان يعتبروا ذلك هدفا بذاته.

ماذا عن الاسلام؟ هل ان الاسلام يطرح قضية الايمان بالله وبالملائكة وبالانبياء وبالاولياء وبالمعاد، على اعتبار انها من الاسس العقائدية والفكرية التي لا اصالة لها، وانما هي مجرد قواعد للبناء الفوقي؟ أم ان الامر بخلاف ذلك، وان هذه الاسس العقائدية والفكرية ذوات أصالة أصيلة، وانها من مبادىء الاسلام

المكتبية، وليست مجرد قواعد ليعلو فوقها هيكل البناء.

في الإسلام، في الوقت الذي يكون فيه الايمان الإسلامي هو القاعدة الاساس التي تبنى عليها العقائد الإسلامية، فان له اصالته الذاتية. وفي هذه الحالة يكون الحق مع الفلاسفة الذين يقولون ان للايمان اصالته، فضلا عما له من قيمة. ان قيمته تكون في كونه مقدمة للعمل، لكل ما هنالك عمل وسعي ونشاط، فاذا جردنا العمل من الايمان لا يبقى شيء، بل اننا بتجريدنا العمل من الايمان نكون قد هدمنا أحد الأسس، بمثلما اننا اذا جردنا الايمان عن العمل نكون هدمنا احد الأسس ايضا. القرآن دائما يقول: ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصّالحات**﴾ فلا يكون ايمان بغير عمل صالح فركن من اركانه السعادة وركنه الأخر العمل.

ان خيمة السعادة لا تقف على عمود واحد. ان للايمان، في المنظور الإسلامي، قيمته الذاتية واصالته، والحقيقة ان كمال الانسان في هذه الدنيا وفي الآخرة منوط بأن يكون الانسان مؤمناً.

للروح في الإسلام استقلالها وكمالها، فهي باقية بعد الموت، فاذا لم تصل الروح الى كمالها تكون ناقصة وفاسدة ولا تصل الى سعادتها. يقول القرآن بهذا الشأن:

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[56].

طبيعي ان المقصود ليس العمى الظاهري في العينين، والا لكان ابو بصير، احد اصحاب الإمام الصادق (ع)، على حال سيئة في الآخرة. انما المقصود هو العمى الباطني، فمن عميت عين بصيرته عن رؤية الحقائق، وعما ينبغي ان يؤمن به (عن رؤية ربه ورؤية آيات ربه)، فهو يحشر أعمى في الآخرة ايضا. فاذا كان هناك رجل عديم الايمان، وقام بكل الاعمال الصالحة في العالم، وبكل المساعي الحميدة التي يمكن ان يقوم بها انسان، أي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحسب ما يصطلح عليه القرآن، واذا عاش عيشة ازهد الناس في العالم، واذا أوقف نفسه لخدمة خلق الله، ولكنه في الوقت نفسه لا يعرف الله، ولا يعرف المعاد ولا عالم الوجود، فانه يكون اعمى، ولا ريب في انه في الآخرة اعمى ايضا. لا يمكن القول بأن الايمان مقدمة لهذه الاعمال، فاذا صلحت الاعمال، فلا عبرة بالايمان ان كان صحيحاً أم لا، إذ لابد ان يكون الانسان مؤمناً:

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ. كَلَّا، إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ

---

٥٦ ـ سورة الاسراء، الآية ٧٢.

﴿يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[٥٧].

فهذا يقال له: اننا حشرناك اعمى لأنك اعميت في الدنيا عين بصيرتك، فقد رأيت الامارات التي تشير الينا، ورأيت علاماتنا، ولكنك لم تعرفنا فيها ولم تدركها لكي تأتي الى عالم الحقيقة وانت ذو نظرة حقيقية، فانت لم تدرك ذلك في الدنيا وعميت عينك عنها، وهاانت ذا تحشر هنا أعمى. فاترك هؤلاء، فهؤلاء في حجاب من الله يومذاك. وهذا هو معنى الايمان، فيا ايها الانسان، انك في هذه الدنيا لكي ترى الآخرة بعينك، وانت في هذه الدنيا لكي تسمع الآخرة بأذنك.

لقد سبق لي ان اعربت عن سروري لرؤيتي شبابنا يقرأون نهج البلاغة. ولكن عليهم ان يلتفتوا الى جميع جوانب نهج البلاغة. لاحظوا ما يقوله نهج البلاغة بهذا الخصوص. انه يؤكد اصالة الايمان ولا يرى قيمته في كونه مجرد قاعدة لبناء ارفع، بل ان له قيمته كأساس وقاعدة، وله في الوقت نفسه اصالته لقد جاء في نهج البلاغة عن اهل الله:

«... يَتَنَسَّمُونَ بِدُعائِهِ رُوُحَ التَّجاوزِ...» أي ان ذوى الايمان، عندما يدعون الله ويستغفرونه، يحسون في باطنهم بنسيم العفو والمغفرة. ويقول ايضا:

---

٥٧ ـ سورة طه، الآية ١٢٥.

«إِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلاءً لِلْقُلوُبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتَبْصُرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَابَرِحَ اللّهُ ـ عَزَّتْ آلآؤُهُ ـ في الْبُرْهة بَعَدَ الْبُرْهَةِ، وَفي أَزْمانِ الْفَتَراتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ في فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ في ذَاتِ عُقُولِهِمْ. . . »[٥٨].

في الإسلام، معرفة الله، ومعرفة ملائكة الله الذين هم وسائط عالم الوجود، ومعرفة الانبياء واولياء الله الذين هم نوع آخر من وسائط فيض الله نحونا، ومعرفة سبب مجيئنا الى هذه الدنيا والى اين نحن ذاهبون، ومعرفة اننا في النهاية، شئنا أم أبينا، الى الله مرجعنا، وان لكل شيء عودة، اي المعاد فلكل هذه المعارف اصالتها، وللايمان بهذه الحقائق اصالته، وهي في الوقت نفسه الأسس الفكرية والعقائدية للإسلام. ان ايماناً اصيلاً مئة بالمئة يمكن في الوقت ذاته ان يكون قاعدة واساساً فكرياً وعقائدياً جيداً لأية مدرسة فكرية.

اذن، فلا تُضحُّوا بالعمل في سبيل الايمان، ولا بالايمان في سبيل العمل، فلا ينبغي ان يذهب احدهما فداء للآخر. وعليه، فان انسان الفلاسفة ليس انساناً كاملاً، انه انسان ناقص، أي ان فيه بعضا من الكمال. ان ما قالوا به من الاصالة للكمال

---

٥٨ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٢، ص٣٤٢.

العقلي صحيح، ولكن تغاضيهم عن سائر جوانب الكمالات الانسانية، وبحثهم عن كمالات الانسان الأخرى في كماله العقلي فحسب، ادى الى ان يكون انسان الفلاسفة انساناً ناقص الكمال. ان انسان الفلاسفة الكامل ليس سوى تمثال من المعرفة، انه يعرف فحسب. انه، حسبما يفترضونه، انسان يعرف كل شيء، ولكنه خال من الشوق، خال من الحركة، خال من الحرارة!

العلم والعقل مختصران في التصوف.

اما الاسلام، فهو اذ يقبل بالقلب، لا يحتقر العقل. وهو اذ يقبل بالقلب، بالعشق، ويقبل بالسيرة والسلوك، وفي الوقت نفسه ليس مستعدا لتحقير العقل والمنطق والاستدلال، فهو يحترم العقل والفكر والاستدلال والمنطق غاية الاحترام. وهذا هو الذي تسبب في ان تظهر في العهود الاسلامية المتأخرة جماعة كان لهم نصيب من كلا العقل والقلب، ومنهم الشيخ شهاب الدين السهروردي، شيخ الاشراف، الذي لا يكاد يختلف طريقه عن هذا. وكذلك أو اكثر منه ملا صدرا، صدرا المتألهين الشيرازي، الذي كان من الذين يحترمون طريق العقل وطريق القلب كليهما باتباع القرآن، بخلاف ابن سينا الذي لا يحترم طريق القلب كثيراً (الا ان ابن سينا قد رجع عن رأيه ذاك

في اخريات ايامه)، وبخلاف بعض المتصوفة الذين يحتقرون طريق العقل.

وبناء على ذلك، فان الإسلام لا يرتضي تحقير العلم والعقل والعشق، ويستنكره. ان الانسان الكامل في القرآن هو الانسان الذي بلغ كماله العقلي فأصبح جزءاً منه. والمسألة الاخرى التي يراها المتصوفون في الانسان الكامل، والتي لا يوافق عليها الإسلام، هي مسألة توجه الصوفية الشديد نحو الباطن، وضعف التفاتهم الى الظاهر، وهو امر أقرب الى التوجه نحو الفرد منه الى التوجه نحو الجماعة والمجتمع، بل لا يكاد يكون لهذا التوجه الاخير وجود. ان الانسان الصوفي الكامل هو الذي لا ينظر الا الى ذاته وباطنه فحسب.

اما انسان الإسلام الكامل، فهو في الوقت الذي يؤيد فيه ما يقال عن القلب والعشق والسلوك والعلم الحفاظي والعلم المعنوي وتهذيب النفس، فانه لا يبتعد ببصره عن النظر الى الخارج ايضا الى المجتمع، ولا يقتصر على النظر الى باطنه فحسب، فهو اذا اختلى بنفسه في الليل ونسي الدنيا وما فيها، فانه في النهار في صدر المجتمع.

لقد جاء في وصف اصحاب الامام الحجة عجل الله فرجه الشريف، باعتبارهم نماذج للمسلم الكامل، انهم «رُهْبَانٌ فِي

اللَّيْلِ لُيُوثٌ فِي النَّهَارِ»[٥٩].

والقرآن نفسه يجمع كل هذه الصفات فيقول:

﴿التّائبون، العابدون، الحامدون، السّائحون، الرّاكعون، السّاجدون، الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله، وبشّر المؤمنين﴾[٦٠].

فالى حد ﴿الساجدون﴾ تكون الصفات باطنية، ومن ثم تأتي الصفات الاجتماعية مباشرة بقوله ﴿الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر﴾.

وكذلك الآيات: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفرة وآجراً عظيما﴾[٦١].

---

٥٩ ـ سفينة البحار، مادة: صحب.

٦٠ ـ سورة التوبة، الآية ١١٢.

٦١ ـ سورة الفتح، الآية ٢٨ .

فهنا يبدأ بالاتجاه الاجتماعي، بذكره الرسول ومن معه في مقابل الذين يخفون الحقيقة ويعاندونها، وكيف انهم يواجهون هؤلاء بصلابة وقوة، ولكنهم، مع اهل الايمان من اصحابهم، كل المحبة وكل العطف والرحمة. هذه هي صفاتهم في المجتمع، ومدى علاقتهم بالمجتمع. وهؤلاء هم انفسهم تراهم في ركوعهم وفي سجودهم يكثرون من طلبهم من الله ويستزيدونه، لانهم ليسوا قانعين بما عندهم، انما الذي يريدونه ويلحون في طلبه هو مرضاة الله، انهم لا يطلبون شيئا من متاع الدنيا بل رضا الله عندهم أجل وارفع من كل شيء، حتى انك ترى في وجوههم علائم التعبد.

هنا تتضح نقطة ضعف اخرى في الانسان الكامل الصوفي. لا شك ان الكثيرين من اوائل الصوفية اللذين كانوا تحت تأثير التعاليم الاسلامية الشديدة، قد انتبهوا الى هذه النقطة واشاروا اليها في اقوالهم، ولكنها اخذت تظهر قليلا وكثيرا، وهي التوجه نحو الداخل فقط، نحو الباطن فقط الى الحد الذي لم يعد فيه أثر للتوجه نحو الخارج، نحو المجتمع. ان الاسلام لا يؤيد هذا.

وهناك ناحية اخرى تخص «قتل النفس». ليس لهذا التعبير وجود في المصطلحات الإسلامية ولكن هناك تعبير: موتوا قبل ان تموتوا، وهو كناية عن تهذيب النفس واصلاحها، على الرغم

من ان تعبير قتل النفس يرد كثيرا في شعر الشعراء، بهذا المعنى وبمعنى تحطيم النفس واذلالها وتجنب الانانية والزهو والتفاخر. هذه الامور ترد في تصوفنا بشكل يبدو معه انه يغفل كليا عن نقطة مهمة جدا في الإسلام، وهي كرامة النفس. ان من الابواب التي عن طريقها يستطيع الانسان ان يدرك من خلال وجوده عالم المعنويات، وان يعرف ان هناك، غير الامور المادية، امورا اخرى موجودة ولكنها غير محسّة، موجودة ولكنها غير ملموسة، موجودة ولكنها لا يمكن العثور عليها في المختبرات هي هذه الامور التي يعترف بها جميع البشر في العالم، هي الانسانية التي تقع وراء علم الحياة. ان أشد الناس مادية في العالم يعترفون بوجود امور يطلقون عليها اسم القيم الانسانية، اي انها امور انسانية غير مادية. وعليه، فاننا نريد ان نتعرف على القيم الانسانية الأصيلة من المنظور الإسلامي اي اننا نريد ان نعرف ما هي القيم التي يقول الإسلام انها قيم انسانية أصيلة.

اننا ما لم نطرح المذاهب المختلفة للتمحيص والنقد لا نستطيع التعرف بعمق ودقة على ما يقدمه الإسلام ويقترحه. والنقد هنا يقصد به ان نزن اقوال الفلاسفة والمتصوفة في هذا الشأن على محك الموازين الإسلامية والمعايير الاخرى.

ولقد سبق ان ذكرنا بعض ما يؤخذ على الانسان الكامل عند المتصوفة، وقلنا ان هؤلاء يستهينون بالعقل الى حد الافراط،

حتى انهم احيانا يعتبرون مقام العشق ارفع من مقام العقل، ويصلون في تحقيرهم العقل والفكر والمنطق والاستدلال الى الغاء كل اعتبار لها، بل انهم يصفونها احيانا بالحجاب الأصغر، ولا يخفون استغرابهم اذا رأوا حكيما من الحكماء ذا مكانة.

وهناك قصة معروفة ومذكورة في التاريخ. لقد عاش ابن سينا في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس، اذ توفي سنة ٤٢٨هـ. لقد كان هذا الفيلسوف العظيم المشاء العقلي الجاف معاصراً لأحد كبار المتصوفة المشهورين، وهو ابو سعيد ابو الخير. فبعد ان فر ابن سينا من مسقط رأسه في ما وراء النهر، في بلخ وبخارى، تهربا من السلطان محمود الذي كان يريده في بلاطه، التقى في نيشابور ابا سعيد هذا. تقول الكتب ان هذين قد اختليا مدة ثلاثة ايام، لم يخرجا فيها الا لصلاة الجماعة. وبعد ان افترقا، سئل ابن سينا عن رأيه في ابي سعيد، فقال: انه يرى ما نعرفه نحن. واذ سئل ابو سعيد عن ابن سينا، قال: ان ما نراه نحن يصل اليه هذا الاعمى بعصاه، وحيثما نذهب يتعقبنا هذا الاعمى بعصاه. فانظر مدى التحقير الذي يكنه هؤلاء للعقل.

اننا نريد ان نقول انه اذا جعلنا رأي القرآن في العقل في جهة، ووضعنا رأي المتصوفة فيه في جهة اخرى، لرأينا ان الرأيين لا يتفقان ولا ينسجمان، فاحترام القرآن للعقل اكثر بكثير

مما يقول به المتصوفة، لأنه يستند اليه والى الفكر، وحتى الى الاستدلال العقلي الخالص.

ان امير المؤمنين علي (ع) يوضع على رأس سلسلة المتصوفين التي يقول بها جميع رجال التصوف بشيعيّهم وسنيهم، وحتى أشد رجال التسنن تعصبا يقولون ان سلسلتهم تنتهي بعلي. ولكنهم يقولون ان من بين سلاسل المتصوفة التي تبلغ ستين او سبعين سلسلة عندهم، سلسلة واحدة تنتمي الى ابي بكر، اما السلاسل الأخرى فانها جميعا تنسب نفسها الى علي (ع) الذي يصفونه بأنه «قطب العارفين» ان ما اجهد هؤلاء المتصوفة انفسهم في تدبيجة من الكتب والرسائل في التصوف، اوجزه الامام علي - كما يقول ابن ابي الحديد - في اربعة سطور في نهج البلاغة، بينما هو في مكان آخر ينقلب الى فيلسوف يقوم بالاستدلالات العقلية والفلسفية مما لا يبلغ شأوه اعظم الفلاسفة. فعلي لم يستهن بالعقل مطلقا. هنا يختلف انسان المتصوفين الكامل عن انسان الإسلام الكامل. فانسان الاسلام الكامل انسان قد نمت فيه القوى العقلية، بينما انسان التصوف الكامل يحتقر العقل. ونقطة الاختلاف الأخرى هي ان منطق التصوف يقول: اطلب من نفسك. كل ما تريد ان تعطيه اطلبه من نفسك، اي اطلبه من قلبك، اطلبه من الباطن.

ان الطريقة التي تقترحها هذه المدرسة لايصال الانسان الى

مرحلة الانسان الكامل هو تهذيب النفس واصلاحها، والاتجاه نحو الله. كلما كان اتجاه الانسان الى الله اكثر، وانصرافه عن التوجه نحو غير الله اكثر، وكلما كان التفاته الى اعماقه اكبر، وارتباطه بالخارج اضعف، كان اسرع في الوصول الى مقام الانسان الكامل. وطبيعي ان هؤلاء لا يعترفون بأية قيمة للبحث والاستدلال والمنطق.

فما هي نهاية الطريق؟ ان نهاية طريق الفيلسوف هي ان يصبح الانسان عالما من الفكر «صيرورة الانسان عالما عقليا مضاهيا للعالم العيني». ان صورة العالم الكلية تنعكس على مرآة عقله، اي انه يرى العالم في داخله. هذه هي نهاية طريق الفيلسوف. فما هي نهاية طريق الصوفي نهاية طريقة الوصول الى الرؤية. الوصول الى ماذا؟ الوصول الى الذات العليا، الى الله. انهم يعتقدون انه اذا استطاع الانسان ان يصفي باطنه، وان يتحرك في مركبة العشق، وان يطوي مراحل الطريق تحت أشراف انسان أكمل، يصل الى نهاية الطريق حيث ترفع الحجب كليا بينه وبين الله ويصل ـ بحسب تعبيرهم ـ الى الله. هناك في القرآن تعبير عن ﴿لقاء الله﴾. فالصوفي لا يقول سوف اصل الى حيث اصبح عالما من الفكر، او مرآة ينعكس في العالم. بل يقول: انا ماض لأصل الى مركز العالم:

﴿يا أيّها الأنْسانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلىٰ رَبِّك كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾[٦٢].

فانت اذا وصلت الى هناك فسيكون لك كل شيء، ولكنك لا تريد شيئا. هنا اللغز، فانت تصل الى مقام تعطي فيه كل شيء، ولكنك لا تلتفت الى شيء سواه. ما أبدع ما يقوله ابو سعيد ابو الخير:

هركس كه تورا شناخت جان راچه كند
فرزند وعيال وخانمان راچه كند
ديوانه كنى هر دوجهانش بخش
ديوانه تو هردو جهان راچه كند
(ان من يعرفك لا حاجة له بروحه
وما حاجته بالبنين والعائلة والأهل)
(تجنّه وتمنحه كلا العالمين
وما حاجة من جن بك بالعالمين)

فهو قبل ان يعرفك كان يريد كل شيء، ولكنك لم تعطه يومذاك، وعندما ما عرفك ومنحته كل شيء، لوىٰ جيدهُ عن كل شيء. ان من يعرفك لا يلتفت الى كل ما تعطيه، فانت فوق الدنيا والآخرة.

اذا شئنا هنا ان نبين وجهة نظر الإسلام، وهل هذه تنسجم

---

٦٢ ـ سورة الانشقاق، الآية ٦.

مع الموازين الإسلامية أم لا، لا يتسع لنا المجال. ولكننا تعرفنا على الانسان الكامل عند المتصوفة، وعرفنا انه انسان يصل الى الله وعندئذ يصبح مظهرا كاملا لجميع اسماء الله وصفاته، أو، حسب اصطلاحهم، يصبح مرآة تظهر فيها ذات الله وتتجلى.

وقد قلنا ان ما يعتبر هو الانسان الكامل عند الفلاسفة، يعتبره الاسلام انسانا نصف كامل، لا انساناً كاملاً. هنا لابد ان نبحث عما اذا كانت مسألة تهذيب النفس وتزكيتها مطروحة في الاسلام أم لا. نعم، لاشك ان هذه المسألة مطروحة في الاسلام، لأن القرآن يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاها﴾[٦٣].

وهذا بعد ان يقسم القرآن أحد عشر قسما متواليا. هل تزكية النفس طريق في الاسلام الى معرفة الله، أم ان هذه المعرفة لا تكون الا بالدليل والبرهان والاستدلال وطريق الفلاسفة والعلماء. كلا الطريقين يؤيدهما الاسلام الى هذا الحد. هناك حديث نبوي شريف يرويه الشيعة واهل السنة وهو من الامور المسلم بها، قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَنْ أَخْلَصَ لِلّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكَمِ مِنْ قَلْبِهِ

---

٦٣ ـ سورة الشمس، الآية ٩و١٠.

عَلىٰ لِسَانِهِ»(٦٤).

اي ان من امضى اربعين يوما لا تحكمه نازعة سوى رضا الله تعالى، فلا ينطق الا في سبيله، ولا يسكت الا في سبيله، ولا ينظر الا في سبيله، ولا يغمض عينيه الا في سبيله، ولا يأكل الا في سبيله، ولا ينام الا في سبيله، ولا يستيقظ الا في سبيله، أي انه ينظم حياته ويصلح روحه بحيث انه لا يعمل شيئا الا في سبيل الله، ويبعد عن نفسه الهوى اربعين يوما، ويصبح ابراهيم خليل الله الذي يحكى عنه القرآن:

﴿قُــلْ إنَّ صَلَوَاتِي وَنُسْكِي ومَحْيَــايَ ومَمَــاتِـي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٦٥).

فاذا وفق امرؤ في ان يبتعد عن اهواء نفسه اربعين يومـا، ابتعادا تاما، وان لا يقوم خلالها بأي عمل الا لله، وان لا يتحرك الا لله، وان لا يحيا الا لله، فان عيون المعرفة تتدفق في باطنه بعد هذه المدة وتجري على لسانه. ومن هذا يتضح ان الاسلام يقبل بالعلم الذي يطلقون عليه اسم العلم الآفاقي، أي العلم الذي ينبثق من الداخل، في الوقت نفسه الذي يقبل به بالعلم

---

٦٤ ـ سفينة البحار، مادة «خلص».

٦٥ ـ سورة الانعام، الآية ١٦٢.

العقلي الذي يدعو اليه، اذ يطلب القرآن من موسى ان يذهب للتعلم:

﴿فَوَجَدَ عَبْدَاً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمَاً﴾[٦٦].

انه علم لم يتعلمه من بشر، وانما هو علم اندفع من باطنه بأمرنا. ومن هنا يأتي تعبير «العلم اللدني» والذي عبر عنه الشاعر حافظ بلغته الجميلة، اذ يقول:

شنيدم رهروى درسرزمينى
همى گفت اين معما باقرينى
كه اى صوفى شراب آنگه شود صاف
كه در شيشه بماند اربعينى
(سمعت عابرا في بعض الارض
لا يفتأ يذكر هذا اللغز لقرينه
(ايها الصوفي، انما يروق الشراب
اذا بقى في القنينة اربعينا)

ويقول الرسول الكريم ايضا:

«لَوْلَا أنَّ الشَّيَاطِينَ يَحومُونَ حَوْلَ قُلوُبِ بَني آدَمَ لَنَظَرُوا إلىٰ

---

٦٦ ـ سورة الكهف، الآية ٦٥.

مَلَكُوتِ السَّماوَاتِ»[٦٧]. أي ان الشياطين يدورون حول بني آدم ويثيرون الغبار والظلام، والا لاستطاعوا بعيون قلوبهم ان يروا ملكوت الله. كذلك يقول الرسول (ص):

«لَوْلَا تَمْرِيغٌ فِي قُلُوبِكُمْ أَوْ تَزِيدُكُمْ فِي الْحَدِيثِ لَسَمِعْتُم مَا أَسْمَعُ»[٦٨].

وقوله ايضا:

«لَوْلَا تَكْثِيرٌ فِي كَلَامِكُمْ وَتَمْزِيجٌ فِي قُلُوبِكُمْ لَرَأَيْتُمْ مَا أَرَىٰ وَلَسَمَعْتُمْ مَا أَسْمَعُ»[٦٩].

فلا يلزم المرء ان يكون نبيا ليرى ما يراه الانبياء ويسمع ما يسمعونه. بل ان غير الانبياء يسمعون ايضا، مثلما سمعت مريم. وعلي (ع) وهو ابن عشر سنوات، كان في خدمة الرسول (ص) يتعبد معه في المعبد، وفي غار حراء كان معه. وعندما نزل الوحي لأول مرة على الرسول (ص) وتغير العالم في نظره، كان علي يسمع تلك الاصوات التي كان النبي (ص) يسمعها من عالم الغيب والملكوت، انه يقول:

«وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِيْنَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّىٰ اللّٰهُ

---

٦٧ ـ معراج السعادة، ص١١.

٦٨ ـ مسند احمد، ج٢٦٦٥.

٦٩ ـ معراج السعادة.

عَلَيْهِ وَآلِهِ. فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا هٰذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ. إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَىٰ مَا أَرَىٰ، إِلاَّ إِنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَيْرٍ»(٧٠).

وعليه، فان تصفية النفس والاخلاص والابتعاد عن اهواء النفس لا يقتصر اثرها على اضفاء الصفاء على القلب، بل ان لها اثرا أعلى وأرفع من ذلك، وهو انها تفجر العلم والحكمة في داخل الانسان.

هناك حديث آخر جاء فيه ان اصحاب الرسول (ص) قالوا: «يا رسول الله، نخاف علينا النفاق» انظر كيف ان هؤلاء المؤمنين احسوا في انفسهم بدغدغة اثارت ريبتهم في ان يكونوا من المنافقين بغير ان يعلموا. فقال: ولم تخافون ذلك؟ قالوا: اذا كنا عندك فذكرتنا ورغبتنا، وَجِلْنا ونسينا الدنيا وزهدنا حتى كأنّا نعاين الآخرة والجنة والنار ونحن عندك. فاذا خرجنا من عندك ودخلنا هذه البيوت وشممنا الأولاد ورأينا العيال والأهل يكاد أن نحوّل عن الحال التي كنا عليها عندك وحتىٰ كأنا لم نكن على شيء. أفتخاف علينا ان يكون ذلك نفاقا؟ فقال لهم رسول الله (ص): كلا ان هذه خطوات الشيطان. فيرغبكم في الدنيا. والله لو تدومون على الحالة التي وصفتم انفسكم بها

٧٠ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠.

لصافحتكم الملائكة ومشيتم على الماء. ولـولا انكم تذنبـون فتستغفرون الله لخلق الله خلقا حتى يذنبوا ثم يستغفروا الله فيغفر لهم. ان المؤمن مفتن تواب. أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ وَيُحِبُّ الْمَتَطَهِّـرِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿إِسْتَغْفِـرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ﴾[٧١].

وهـذا في رأيـي هو الـذي عبر عنـه سعـدي في قـطعتـه المشهورة. علينا ان ندرك ان ادبنا العرفاني الفارسي المشهور في ارجـاء العالم انمـا هو مـدين للاسـلام بما عنـده. فليقـل المستعمرون ما يقولون، ولكن كل هذا اللطف، وهذه الروعة عند مولوي وحافظ وسعدي وناصر خسرو منبعه الاسلام. وهذا ما لا يخفيه حافظ اذ يقول ان كـل ما عنـده من دولة القـرآن. وسعدي نفسه يقول ذلك بصورة اخرى على لسان يعقوب:

یـکی پـرسـیـد از آن گم گـشتـه فـرزنـد
کـه أی روشـن روان پـیـر خـردمـنـد
زمـصـرش بـوی پـیـراهـن شـنـیـدی
چـرا در جـاه کـنـعـانش نـدیـدی

٧١ ـ الكافي ـ كتاب الايمـان والكفر ـ بـاب «في تنقل احـوال القلب» الروايـة الأولى.

(سأل سائل من ذلك الفاقد ولدا:

يا ايها الشيخ الحكيم المتنور بصيرة)

(لقد شممت رائحة قميصه من مصر

فكيف لم تره في بئر بني كنعان)

انها قصة يوسف وابيه يعقوب. فعندما عرّف يوسف اخوته بنفسه، ارسل معهم بقميصه اليه ولكنه قبل ان يقولوا شيئاً قال:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونَ﴾[72].

يقول سعدي: لماذا لم تشم ريحه وهو في بئر بني كنعان حيث كنت، مع انك تشم الآن ريحه وهو في مصر؟ فكان جوابه:

به گفتا حال مابرق جهان است

دمى پيدا وديگر دم نهان است

(فقال: حالنا حال البرق في العالم

فمرة يخطف خطفا ومرة يختفي)

ثم يعلق سعدي قائلا:

اگر درويش درجائى بماندى

سرود ست ازدو عالم بركشاندى

---

٧٢ ـ سورة يوسف، الآية ٩٤.

(لـو ان الـعـارف ظـل على تـلك الحـال
لاستـطاع ان يـرتفـع عن كـلا العـالمين)

يقول النبي (ص): لو انكم بقيتم على تلك الحال التي تحسونها وانتم معي «لصافحتكم الملائكة ولمشيتم على الماء».

ولتأييد كل ذلك نرجع الى نهج البلاغة، فنهج البلاغة اقرب الى قلوب الشباب وألذ لهم.

لقد سبق ان قلنا ان نهج البلاغة مثل على نفسه. ان القول كقائله. فبالكلام تتجلى روح الانسان فالروح المنحطة كلامها منحط، والروح السامية كلامها سامٍ، والروح ذات البعد الواحد كلامها ذو بعد واحد، والروح ذات الابعاد العديدة كلامها متعدد الابعاد. وعلي، هذه الشخصية الجامعة للاضداد، كلامه جامع للاضداد ايضا. ففي كلامه عرفان بأعلى مراتبه، وفلسفة بأعلى مراتبها، وطلب للحرية بأعلى مراتبه، وحماسة بأعلى مراتبها، واخلاق بأعلى مراتبها، وكل ما تجده يكون مثل علي. وهو في كلمة جامعة يصف السالك الى ربه فيقول:

«قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَماتَ نَفْسَهُ، حَتّىٰ دَقَّ جَلِيله، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبرَقَ لَهُ لاَمِعٌ كَثيرُ الْبَرْقِ فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ ٱلأَبْوابُ إِلىٰ بابِ السَّلامَةِ وَدَارِ الأقامة وثَبَتَتْ رِجْلاهُ بِطُمَأْنِينةٍ بَدَنُهُ في قَرَارِ ٱلأَمْنِ وَالرَاحَةِ بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ

وَأَرْضَىٰ رَبَّهُ»[٧٣].

وعليه فان الانسان الكامل من حيث كونه انسانا سالكا الى ربه، ينبغي ان يكون انسانا قد هذب نفسه وزكاها.

يقول الاسلام: نعم، ان الانسان الاسلامي الكامل هو الانسان السالك يجتاز الابواب باباً باباً ويمر بالمنازل منزلا منزلا، حتى يقف امام باب السلامة. فهل الاقتراب من الله ممكن؟ نعم، بغير شك، حتى يصل الى حيث لا يكون بينه وبين ربه حجاب، فيراه بعين قلبه بغير حجاب، فلا يكون مثلنا وبحسب القول المعروف: من الأثر يعرف المؤثر. فلننظر الى السماء لنكشف الله. ولننظر الى الارض لنكشف الله. ولننظر الى ورق الشجر لنكشف الله. ان الله عند هذا الانسان لأجلى من ورق الشجر ومن الارض ومن السماء. ألم يقل الامام الحسين (ع):

«أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدن عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيبا».

---

٧٣ ـ نهج البلاغة، الكلام ٢٢٠.

سأل شخص عليا: هل رأيت الله؟ فقال: اني لا أعبد من لا أراه. ولم يقصد الرؤية بالعين ولا ان الله في مكان معين: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان».

الى هذا الحد من وصف الانسان الكامل عند الصوفية يمكن ان يؤيده الاسلام. غير ان في مدرسة التصوف امورا لا يقرها الاسلام عليها. ولهذا فان انسان المتصوفة الكامل، انسان نصف كامل في الاسلام.

ان البحث في الانسان الكامل عند رجال العرفان والتصوف يحظى ـ كما قلنا ـ بأهمية اكبر اذ ان الانسان الكامل الذي قال به الفلاسفة، كابن سينا وارسطو ـ أقل شيوعا بين الناس، فقد ظل في نصوص الكتب الفلسفية ولم يخرج منها الى نطاق الواقع. اما المتصوفة فقد نشروا بين الناس وجهة نظرهم في الانسان الكامل سواء في كتبهم النثرية، أم في دواوينهم الشعرية، باسلوب تمثيلي اوشعري، . مما يكون له تأثير كبير في النفوس. وفي هذه الكتب والدواوين ـ كما في الكتب الفلسفية ـ أمور مقبولة في نظر الاسلام، الا ان فيها ايضا امورا قابلة للنقد، اذ ان انسان الاسلام الكامل لا يتطابق مع انسان التصوف الكامل مئة بالمئة.

سبق ان قلنا ان الفلاسفة يرون ان ذات الانسان وجوهره هو عقله، وكل ما عداه يكون خارج الذات الانسانية وحكمه حكم الادوات والوسائل. فكيان الانسان هو قوة فكره وقوة منطقه في التفكير.

اما المتصوفون فلا يرون الانسان في عقله وفكره، بل يعتبرون العقل والفكر من الوسائل، وما «أنا» الانسان الا ذلك الذي يطلقون عليه اسم القلب. وطبيعي انهم لا يقصدون بالقلب هذا العضو الذي يعمل في الجسد، انماهم يقصدون بالقلب مركز الاحساسات ومطاليب العقل، أي مركز الفكر والتفكر والحساب. ان المتصوف يعترف للمشاعر، وللعشق الذي هو من أقوى المشاعر في الانسان، بأهمية كبرى. وبديهي ان عشق المتصوف هو غير الحب الصحفي الذي نقرأ عنه، فهذا حب جنسي، اما لعشق الصوفي فهو الحب الذي يرتفع بالانسان الى الله، فمعشوق الصوفي الحقيقي هو الله. ثم ان هذا الحب الذي يقول به الصوفي لا يقتصر على الانسان، بل هو يسري في جميع الكائنات. ففي كتب التصوف وفي الكتب الفلسفية التي تميل الى التصوف، مثل (اسفار) ملا صدرا، نجد مواضيع تتحدث «في سريان العشق في جميع الموجودات». فهم يعتقدون ان العشق يجري في جميع ذرات الوجود ـ في الهواء، وفي الحجر، وفي اجزاء الذرة. الواقع ان الحقيقة الكبرى هي

العشق، وما تراه غير العشق فهو مجازي يغطي وجه العشق الحقيقي.

يقول مولوي:

عشق بحرى است آسمان بروى كفى
جون زليخا در هواى يوسفى
(العشق بحر والسماء زبد يعلوه
مثل زليخا في حب يوسف)

ويقول حافظ:

رهر ومنزل عشقيم زسرحد عدم
تابه اقليم وجود اين همه راه آمده ايم
(اننا السائرون نحو منزل العشق، فمن تخوم العدم
حتى اقليم الوجود طوينا كل هذا الطريق)

وانه لقول رائع، وهو تضمين لبعض ما جاء في الصحيفة السجادية، فبعد الحمد والثناء، يقول:

«إبْتَدَعَ بِقُدْرَتِه الْخَلْقَ ابْتِدَاعاً، وَاخْتَرَعَهُمْ عَلىٰ مَشِيَّتِهِ اخْتِراعاً، ثُمَّ سَلَكَ بِهِمْ طَرِيقَ إرادَتِهِ وَبَعَثَهُمْ سَبيلَ مَحَبَّتِهِ»(٧٤).

ان ما يقوله هؤلاء هو ان للعالم حقيقة واحدة هي العشق، فهم لا يقولون ان حقيقة الانسان هي العقل كما يقول

---

٧٤ ـ الصحيفة السجادية، الدعاء الأول.

الفيلسوف. بل حقيقة الانسان عندهم القلب، والقلب هو موطن العشق الآلهي فاختلاف بينهما هو ان «الانا» عند المتصوف هو ما يستطيع ان يعشق، لا ما يستطيع ان يفكر.

يقول الفيلسوف ان الانسان اذا اراد ان يبلغ الكمال فوسيلته المنطق. عليه أنْ يمتطي المنطق والاستدلال، والقياس، وان يضع المقدمة الكبرى والصغرى وان يفكر، لكي يصل الى كماله. ولكن الصوفي يقول، كلا:

درسر عارف سواد وحرف نيست
جزدل اسپيد همجون برف نيست
(ليس في رأس العارف علم ولا كلام
فلا شيء غير قلب ابيض كالثلج

ليس هناك علم ولا معرفة ولا كلام ولا صغرى وكبرى ومقدمة ونتيجة، ولا استدلال وما الى ذلك. وبدلا من ذلك كله يقول: صف نفسك وهذبها، وابتعد عن الرذائل، وعن الالتفات الى غير الله قدر الامكان، وسيطر على خواطرك، فكلما خطرت لك خاطرة ليست عن الله فهي من ابليس، وما دام ابليس في قلبك، فلن تدخله الملائكة التي هي نور الله.

يقول حافظ:

برسرآنم اگر زدست بر آيد
دست بكارى زغم كه غصه سرآيد

خلوت دل نیست جای صحبت اغیار
دیو چو بیرون رود فرشته در آید
صحبت احکام ظلمت شب یلداست
نور زخورشید جوی گوکه در آید
بر در ارباب مروت دنیا
چند نشینی که خواجه کی بدر آید
ترك گدائی مکن که کنج بیابی
از نظر رهروی که در نظر آید
(انني عازم على أمر ان استطعت ذلك
ان اقوم بعمل ينهي الهم والغم)
(ان خلوة القلب ليست لكلام الاغيار
فعندما يخرج ابليس يدخل الملاك)
(مقولة الاحكام تكون في ظلام ليل الشتاء
فاطلب النور من الشمس وقل لها ان تطلع)
(كم على باب سيد الدنيا القاسي
تجلس منتظرا متى يخرج الخواجه)
(لا تترك الدروشة اذ ستجد كنزا
في نظر العابر الذي يبدو للنظر)

التصوف مدرسة باطنية، حيث القلب فيها اكبر من

العالم، فلو وضعت العالم في طرف، والقلب ـ والمقصود به الروح الألهية الكامنة في كل انسان ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[75]. في طرف آخر لكان القلب اكبر من العالم كله. انهم يطلقون على العالم اسم الانسان الصغير، وعلى القلب اسم الانسان الكبير. وبما انهم يرون ان العالم والقلب عالمين مختلفين، فالعالم هو العالم الصغير، والقلب هو العالم الكبير، على عكس ما نقوله نحن، فالعالم عندنا عالم صغير، والانسان هو عالم كبير. عالم الانسان عالم صغير، والعالم الكبير هو الشيء الموجود في داخلك.

اساس العرفان مبنى على التطلع الى الباطن والى القلب، والاتجاه الى الداخل والانصراف عن الخارج، ونفي القيم الخارجية على اعتبار ان الذي نبحث عنه، وهو الله، لا يمكن العثور عليه في العالم الخارجي، بل في الباطن. ان التصوف متقدم كثيرا في موضوع التطلع الى الباطن والتوجه نحوه هناك قصة رمزية يحكيها مولوي، يقول:

كان رجل يدعو الله دائما ان يوفقه للعثور على كنز، ويقول: يا آلهي، ما اكثر الذين جاءوا الى هذه الدنيا وما اكثر الذين دفنوا في الارض كنوزهم وذهبوا الى حال سبيلهم، وبقيت كنوزهم

---

٧٥ ـ سورة الحجر، الآية ٢٩.

مدفونة. فياآلهي اجعلني اعثر على واحدة منها. ظل الرجل مدة على هذا المنوال، يدعو ويبكي ليله حتى الصباح. في احدى الليالى رأى في منامه رجلا جاء اليه وسأله: ما الذي تريده من الله؟ فقال: اريد كنزا. فقال: انا مأمور أن ادلك على كنز. فقال: حسن. فوصف له مكانا ما وقال له: اذهب الى التل الفلاني ومعك قوس وسهم، ومن هناك تطلق سهمك، وحيثما يقع على الارض يكن الكنز فاستيقظ الرجل فرحا بالرؤيا الواضحة التي رآها، وقال في نفسه: سأذهب، فلعل الامر صحيح، فان صحت الامارات فقد بلغت ما اريد. وذهب، فرأى العلامات كما وصفها له الرجل في المنام، وما كان عليه سوى ان يرمي السهم، ليعثر على الكنز حيث يقع. ولكنه تذكر ان الاتجاه الذي يجب ان يطلق اليه السهم لم يذكر له في المنام، فقال: لابأس، سوف ارمي السهم باتجاه القبلة، وان شاء الله يكون هو الاتجاه المطلوب. وتناول السهم ووضعه في القوس واطلقه بكل قوته باتجاه القبلة وعين مكان وقوعه وتناول المعول وراح يحفر ويحفر، ولكنه لم يصل الى الكنز. فقال: سأرمي سهما باتجاها آخر. ورمى. وحفر. ولم يجد شيئا. ورمى في كل الاتجاهات، وحفر، بغير ان يصل الى الكنز. ولما هده التعب، رجع الى المسجد، وقال: يا آلهي، ما هذا التوجيه الذي وجهتني اليه. وظل مدة اخرى ينوح ويبكي، حتى جاءه الشخص نفسه في

المنام مرة اخرى، فراح يوبخه على ارشاده الغلط. فسأله الرجل: هل وجدت نقطة اطلاق السهم؟ فقال: نعم. فقال ثم ماذا فعلت؟ فقال وضعت السهم في القوس ورميته بكل قوتي باتجاه القبلة. فقال: انا لم اقل ارمه باتجاه القبلة، ولم أقل ارمه بكل قوتك. قلت حيثما يقع السهم بنفسه، ولم اقل جر القوس. وفي اليوم التالي حمل قوسه وسهمه ومعوله ومجرفته ويمم شطر المكان، وقال: فلننظر اين يقع السهم. واذا اطلقه وقع عند قدميه، فحفر حيث وقع، فعثر على الكنز. وعندما يصل مولوي الى هذا الحد يقول:

آن چه حق است أقرب از حبل الوريد
توفكندى تير فكرت رابعيد
أى كمان وتيرها برتاخته
كنج نزديك وتو دور انداخته
(ان الحق اقرب من حبل الوريد
ولكنك رميت سهم فكرك بعيدا)
(فيا ايها القوس والسهام المنطلقة
الكنز قريب ولكنك رميت بعيدا)

يقول احد الفضلاء انه سأل احد الذين كانوا يرقون المنبر وكان يروي هذه الحكاية عن مولوي عن المغزى الكامن فيها، فكان جوابه جملة واحدة لم يزد عليها: «وفي انفسكم افلا

تبصرون». فالقلب مدينة عجيبة. ان العالم وعاء والقلب نهر. العالم بيت والقلب مدينة. هذه الأمثلة يضربها الصوفيون كثيرا في كتاباتهم، اي انهم يستهينون كثيرا بالعالم الخارجي وبالطبيعة. ان المتصوفة لا يرون للطبيعة اهمية تذكر، مع ان في كلام أمير المؤمنين (ع) ما يدل على انه يعتبر العالم عالما اكبر، والانسان عالما اصغر:

دوائك فيك وما تخبر
ودوائك منك وما تشعر
وانت الكتاب المبين الذي
بأحرفه يظهر المضمر
أتزعم انك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

اننا اذا طبقنا هذا المنطق على منطق القرآن، نجد انهما في كثير من الجوانب متطابقان، الا في هذا. فالقرآن لا يستهين بالطبيعة الى هذا الحد، بل ان آيات القرآن والانفس متجاوران في القرآن.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(٧٦).

---

٧٦ ـ سورة فصلت، الآية ٥٣.

اننا بالطبع، نرى ان ارفع المعرفة واشرفها للانسان تنبع من داخله، ولكن هذا لا يعني ان الطبيعة لا شيء، وانها ليست من آيات الله. هل القلب هو وحده مرآة الله؟ كلا، ان القلب مرآة الله، والطبيعة مرآة الله ايضا.

هنا نقطة دقيقة جدا، ابحثها أكثر في مدرسة التصوف والعرفان. لقد سبق ان قلنا ان هذه المدرسة اكثر ما ترتبط بارواحنا، بينما المواضيع التي يتناولها الفلاسفة كانت لانفسهم، والكتب التي ألفها الفلاسفة لم تكن لعامة الناس. ولكن الافكار الصوفية، لما فيها من مشاعر وفورة وحرارة وجمال دلفت الى جميع البيوت. فهذا مولوي وهذا سعدي وهذا حافظ، انك لتجدهم في كل دار. ولهذا فان محاسن هذه المدرسة خدمت كثيرا، على الرغم مما فيها من الزلل والاغراق اللذين لهما اثرهما ايضا. لذلك فقد عالجنا هذه المدرسة باسهاب اكثر من تناولنا للمدرسة الفلسفية.

ما علاقة الانسان بالطبيعة؟

هذه هي مسألة قائمة بذاتها. ترى هل علاقة الانسان علاقة غريب بغريب مئة بالمئة؟ او حتى يمكن القول: هل هي علاقة السجين بالسجن، والطير بالقفص، ويوسف ببئر بني كنعان؟

قد يقول امرؤ ان مجرد مجيء الانسان الى الدنيا يعني حبسه

في قفص، يعني احتجاز الفرد الحر يعني الوقوع في بئر يوسف. فاذا اعتبرنا الطبيعة بمثابة سجن وبئر وقفص، فان علاقتنا بها تكون علاقة تضاد. فكيف تكون علاقة الضد بضده؟ تكون سعي الطير للخلاص من القفص، ولا يكون له مسعى غير النجاة من هذه الطبيعة. او تكون جهد السجين للفرار من سجنه بهدم جدرانه. وليس ليوسف في البئر الا انتظار عابر سبيل ينقذه بدلوه من ذاك البئر. فهل يرى القرآن ان علاقة الانسان بالطبيعة هي مثل علاقة السجين بالسجن، والطير بالقفص، ويوسف بالبئر؟ هذا ما يستند اليه المتصوفة كثيرا. يقول سنائي:

«حطم القفص واخرج كطاووس يرفرف الى العلى!».

او كقول الآخر:

«يا يوسف مصر فلتخرج من البئر!».

ولكن في الاسلام علاقة الانسان بالطبيعة علاقة الفلاح بمزرعته، علاقة التاجر بتجارته، علاقة العابد بمعبده. فالمزرعة ليست هي هدف الفلاح، بل هي وسيلة، محل ومنزل لحياته. ان المدينة هي مركز حياة الفلاح، ولكنه من هذه المزرعة يستخرج اسباب معيشته وسعادته. فعليه ان يذهب الى المزرعة، وان يحرث الارض، وان يبذر البذر، وان يقتلع الحشائش الضارة، وان يحصد ويدرس... ولهذا قيل: الدنيا

مزرعة الآخرة. نعم، فاذا اخطأ أحد واعتبر المزرعة دارا وسكنا له، فانه يكون على خطأ. والسوق للتاجر مكان عمل، اي المكان الذي يستثمر فيه رأسماله ويسعى لتربيته والاستزادة من الربح على ما عنده. هكذا هي الدنيا بالنسبة للانسان. «الدنيا مزرعة الآخرة» كما قال رسول الله (ص): «الدُّنْيَا مَتْجَرُ أَوْلِيَاءُ اللّهِ»[77] قال علي (ع):

جاء رجل الى الامام علي (ع) وراح يذم الدنيا. كان قد سمع ان الامام يذم الدنيا، ولكنه لم يدرك ما الذي يذمه علي (ع) من الدنيا. فظن انه يذم الدنيا ككل، فيذم الطبيعة، مثلا، بغير ان يدري ان عليا كان يذم حب الدنيا وعبادتها. انه يذم ذلك لكونه يقف ضد عبادة الله وحب الحقيقة الأمر الذي يساوي انكار جميع القيم الانسانية. فغضب الأمام، وقال:

«أيّها الذامُ لِلْدنْيا، الْمُغْتَرُ بغُرورها، الْمَخْدُوعُ بأباطِيلِهاَ. أَتَغْتَرُّ بِالدّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّها. أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ»[78].

لقد سبق ان ضربت لذلك مثلا. فقد تأتي عجوز متجملة بالجمال الاصطناعي، فتغرى شابا ببياض اسنانها الاصطناعية،

---

٧٧ ـ نهج البلاغة ص٤٩٢.

٧٨ ـ نهج البلاغة.

وبشعرها الذهبي المستعار، فيحسبها الشاب فتاة فتية، ولكنه يتنبه بعد ذلك الى انه كان مخدوعا. ولكن قد تأتي عجوز بغير اصباغ وتقول: انا عجوز ولا اسنان في فمي والبس شعرا مستعارا، وانا كما تراني، فهل تريدني زوجة؟ فاذا ظننتها تبالغ ولم تصدقها، فانها لا تكون قد خدعتك، بل تكون انت الذي خدعت نفسك بنفسك.

فعلي يقول ان الدنيا لم تخف شيئا، فاي جانب من الدنيا قد خدعك؟ أهي خدعتك يوم دفنت اباك بيدك؟ ان الدنيا تقول: هكذا انا. ليس عندي شيء ثابت. فعليك ان تتقبلني كما انا. لماذا تريد ان تتخيلني بخلاف ما انا وبحسب ما يعجبك؟ ان الدنيا لا تخدع احدا. ثم يقول (ع): تعالى نتحاسب. أأنت الذي جنيت على الدنيا، أم الدنيا هي التي جنت عليك؟ أأنت الذي تخون هذا العالم، أم ان العالم هو الذي يخونك؟ متى خدعتك الدنيا؟ متى خانتك؟ انك انت الذي جريت خلف اهوائك. ثم يقول: «الدنيا متجر اولياء الله» ومسجد اوليائه. لولا السوق ما كان لتاجر ان يتاجر ويربح.

ان الفكرة القائلة بان الدنيا للانسان سجن، وبئر، وقفص، وان من واجبه ان يحطم هذا القفص وان يخرج منه ومن البئر، انما هي فكرة مبنية على مبدأ آخر يعود الى باب معرفة النفس ومعرفة الروح وهي مما لا يقبله الاسلام، ولكنها كانت معروفة

قبل الاسلام في اليونان وفي الهند موجز الفكرة هو ان روح الانسان كانت قد خلقت بالتمام والكمال في عالم آخر، ولكنها تحبس في قفص كالطيور ويؤتى بها الى هنا. فاذا كان الامر كذلك حقا، فلابد من تحطيم القفص. ولكن القرآن يقول في سورة «المؤمنون» قولا عجيبا، حتى ان صدرا المتألهين يقول انه اكتشف من هذه الآية نظرية جسمانية حدوث الروح وروحانية بقائها. هذه الآية تقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا الْأَنْسَانَ مِنْ سلالةٍ مِنْ طين. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمَاً، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾(٧٩).

فهذه المادة الطبيعية قد حولناها الى شيء آخر، الى روح. اي ان الروح وليدة هذه المادة هذه الطبيعة. ان الروح بذاتها مجردة، ولكنها وليدة المادة، ولم تكن في عالم آخر تبلغ كمالها فيه ثم تحبس في فقص. انها هنا في احضان امها الطبيعة. فعندما يحيا الانسان في الطبيعة فانه يحيا في احضان امه. وعليه، فان تكامله يكون في احضانها ايضا، لا في مكان آخر ومن قبل، ثم حبس هنا في قعر بئر وعليه ان يخرج منها. هذه

---

٧٩ ـ سورة المؤمنون، الآيات ١٢ ـ ١٥.

الفكرة ليست انسانية. فالاسلام يقول: ليس لـك ان تبقى في احضان امك دائما وابدا، لانك اذا لم تعرج من الـطبيعة ولم تنهض عن احضان امك وترتفع عن الـطبيعة فسـوف تظل في الطبيعة وتصبح جزءاً منها:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

و﴿إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[٨٠].

فالذي يبقى في اسفل السافلين، في الطبيعة، تكون الآخرة له جهنم:

﴿أَلْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . ومَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ . يَوْمَ يَكُونُ الْنَاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْقُوشِ ، فأمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُـوَ في عِيشَةٍ رَاضِيَـةٍ . وأمّا مَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[٨١].

ان امه هي جهنم، فهو مولود خلقه الله في حضن هذه الأم لكي ينهض ويصعـد من هـذا الحضن الى الاعلى، الى حيث يدرس ويطوى مدارج التقدم. فاذا لم يتحرك ظل في هذا الحضن ابد الدهر.

إذن، فـالانسان، في المنـظور الإسلامي لـلإنسان وفي

٨٠ ـ سورة التين، الآيتان ٥و٦.

٨١ ـ سورة القارعة.

المنظور الاسلامي للعالم، ليس ذلك الطير الذي صنع وصقل من قبل وكان يطير في فضاء عالم القدس ثم جيء به الى هذا العالم وادخل القفص، وعهد اليه بوظيفة تحطيم القفص. ان الاسلام لا يقر بهذا. فاذا كنت قد سمعت بأن عالم الارواح متقدم على عالم الاجسام، وان الروح ارفع مقاما من الجسد، فذلك لأن الروح شعاع تكون في هذا العالم ولكنه انعكاس من عالم آخر على هذا العالم، لا انه بلغ كماله وتمامه في مكان آخر ثم أُتي به الى هذا العالم وادخل في القفص. هذه فكرة هندية. ان فكرة التناسخ فكرة هندية وافلاطونية.

لقد كان افلاطون اليوناني يعتقد ان روح الانسان قد صيغت في عالم قبل هذا العالم، في عالم المثل، ثم اقتضت المصلحة ان تسجن هنا في هذا الجسد، وهي لابد ان تنطلق من هنا. ولكن الاسلام لا ينظر الى الطبيعة من هذا المنظور.

اننا، بالطبع، لا نريد ان نقول ان جميع المتصوفة قد ارتكبوا هذا الخطأ، اذ الواقع ان كبار المتصوفة قد اشاروا في اقوالهم الى ذلك، ولم يتجنبوا المجتمع، ولا تركوا الطبيعة، ولم يغب عنهم ان القرآن يذكر ان آيات الافاق والانفس جنبا الى جنب، كما انهم ادركوا ان الطبيعة، مرآة الله، مرآة تعكس جمال الله.

أَوَ ليس الشبستري هو القائل في منظومته الرائعة التي تعتبر

بحق من الورائع في عالم الانسانية:

بنام آنكه جان رافكرت آموخت
چراغ جان بنور دل برافروخت
زفضلش هردو عالم گشت روشن
زفيضش خاك آدم گشت گلشن

حتى يقول:

بنزد آنكه جانش در تجلى است
همه عالم كتاب حق تعالى است

(باسم الذي علم الروح الافكار
واشعل مصباح الروح بنور القلب)
(فغدا بفضله كلا العالمين نيّرين
ومن فيضه اصبح تراب الانسان حديقة)
(ان الذي روحه دائمة التجلي
يرىٰ كل العالم كتاب الله تعالى)

اذا وضعنا القرآن في جانب، والتصوف في جانب آخر، وامعنا النظر في اهتمام القرآن بالطبيعة ومدى توجهه اليها، ثم قدرنا اهتمام التصوف بالطبيعة، نجد ان عناية القرآن بالطبيعةأشد من عناية المتصوفة بها، بغير ان ينكر القرآن شيئا من العناية بالنفس والتوجه الى الباطن بشكل من الاشكال.

اذن، فالانسان الكامل في القرآن، إلى جانب كونه يعني بالعقل، ويعني بالقلب، يعني بالطبيعة ايضا.

والمسـألة الاخـرى هي مسألـة النفس. فالتصـوف يحترم القلب، ولكنـه يعتبر النفس التي ورد ذكـرها في القـرآن شيئا وضيعا. والتصوف يدعو، فيمـا يدعـو، الى ترك النفس، الى الابتعاد عن النفس، الى انكار الذات، وهذا، بحد ذاته، أمر مقبول، ومنطق الاسلام يؤيده، ولكننا في الوقت نفسه نصادف في الاسلام ذاتين او نفسين. فهو في الوقت الذي يدحض فيه احدى الذاتين ويستنكرها، يحيـي الذات الأخرى. وهذا أمر في غاية الدقة. انه اشبه بوقوف صديق وعدو لنا عند احد التخوم، ونريد ان نطلق الرصاص على العدو، فلابد من الحذر والتحرز الشديد في تحديد الحد الفاصل بينهما اذ ان أقل خطأ قد يورد الصديق موارد الهلكة. فهاتان الذاتان متداخلتـان في الانسان تداخلا يقتضيه ان يكون الانسان رامياً ماهراً حتى يصيب تلك الـذات العدوة التي هي الـدناءة والضعـة، وحتى يحافظ على سلامة تلك الذات الأخرى التي هي كل القيم الانسانية.

ان معجـزة الاسلام هي انـه استطاع ان يميـز بين هـاتين الذاتين تمييزا دقيقا يمتنع معه الخلط بينهما. ان في التصوف شيئا من هذا التمييز، ولكنه في بعض الاوقات يصيب الصديق بدل اصابة العدو، أي ان الذات الانسانية تكون هي الضحية. فالشيء الذي يسمونه هم القلب والانسان يكون هو الضحية، بدلا من ان تكون النفس هي الضحية. وهذا أمر على جانب كبير

من الدقة. ولما كان التصـوف جميلا، بحيث ذاعت مقـولات المتصوفة نظما ونثرا في الادب، فقد كـان لهـم تأثيـر كبير في مجتمعنا. اي اننا اصبحنا نرى الانسان السامي الرفيع هو ذلك الذي وصفه لنا الصوفيون. ولذلك يلزمنا ان نبحث اكثر في هذا الانسان السامي الذي ادخله التصوف في اذهاننا.

من المسائل المهمة في الانسان الكـامل الـذي تقول بـه المدرسة الصوفية هي مسألة علاقة الانسان بذاته. وهذه مسألة اسلامية في الوقت نفسه ايضا. أي اننا نقرأ عن الجهاد ضد حب الذات والانانية واتباع هوى النفس في المقولات الصوفية، ونقرأ عنها ايضا في التعاليم الاسلاميـة، بل ان مـاورد عن ذلك في التصوف ليس اصيلا، لأنه مأخوذ اصلا من الاسلام، والعبارات المستعملة فيه عبارات اسلامية.

نود هنا ان ندلي بشيء من التوضيح حول ما يطلق عليه اسم «تزكية النفس» أو الجهاد مع النفس» على اعتبار ان النفس عدو داخلي من اعداء الانسان. وقد اقتبس هذا المعنى من الحديث النبوي الشريف: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك».

يقول سعدي في «گلستان»:

سئل صوفي عن معنى الحـديث الشريف: اعـدى عدوك نفسك التي بين جنبيك. فقال: ان اي عدو من اعدائك اذا انت

احسنت اليه واعطيته ما يريد ينقلب من العداء الى الصداقـة. ولكن النفس الانسانية ليست هكـذا، اذ كلما ازددت انت في اعطائها ما تريد ازدادت هي عداءاً لك. ولهذا ينظر الى النفس بعين العداوة. وهذه النفس هي مـا نعبر عنهـا بالأنـانية وحب الذات. فما هذه الانانية التي توصف بالسوء؟

ان احد انواع الانانية هو التمحور الـذاتي، اي ان يجعل الانســان ذاتـه محـورا لـلامـور. ، ويعمـل لـذاتـه، ويتحـرك لمصلحته، فهو محور كل شيء منذ ان ينهض من نومه صباحا حتى يعود الى النوم ليلا. كل سعيه يدور حول ذاته وحياته، لكي يشبع بطنه، ويكسو جسمه، ويستظل بسكن يقطن فيه. فهل هذا النوع من الانانية الى هذه الحدود يعتبر سيئة اخلاقية؟ هل من اللااخلاقية ان يسعى الانسان وراء مصالحه الخاصة؟ كلا، انه الى هذا الحد لا علاقة له بالاخلاق، ولكنه في الوقت نفسه لا يتنافى مع الاخلاق ايضا، ولا هو مرض من الامراض كذلك.

ان القرآن يرى للانسان مقاما ارفع من مقام الحيوان، ويرى له مقاما مساويا لمقام الحيوان، ويرى له مقامـا أدنى من مقام الحيوان. اي انه في الحيوانية مساوٍ للحيوان، ولكنه قد يرتفع قيمة فيربو على مقام الحيوان، بل وعلى مقام الملائكة. وهو قد تنزل قيمته الى ادنى من الصفر فيكون ادنى من الحيوان درجة

ومقاما. وعليه، فان اعمال الانسان تنقسم الى ثلاثة اقسام ايضا، هي:

١ ـ اعمال اخلاقية، حين يكون ارفع من الحيوان.

٢ ـ اعمال منافية للاخلاق، حين يكون ادنى من الحيوان.

٣ ـ اعمال لا اخلاقية، اي لا علاقة لها بالاخلاق اصلا.

فاذا رأيت في العالم انسانا اشبه بالطيور او بالاغنام من حيث صفاته، اي انه لا يفكر الا في نفسه فقط، فهذا الانسان متساوي تماما مع الحيوان. ان عمله ليس خلقا في هذه الحدود، ولا هو يتنافى مع الاخلاق.

وهناك انسان فيما هو يفكر في معيشته وكيف يشبع بطنه، يصاب بامراض نفسانية، أي ان مقامه الانساني يأتي لخدمة حيوانيته، حتى يصل به الأمر الى الانتحار. ان ذلك الطير الذي يجمع الحب انما يريد ان يشبع جوعه. وهذا أمر مشروع لا غبار عليه، وكذلك الحصان الذي يرعى الاعشاب ليسد جوعه. واذا كان الانسان في حالة مماثلة فإنه أمر طبيعي في تلك الحدود، أي إنه يعمل ضمن حيوانيته. ولكن الانسان قد يقع فريسة الحرص والطمع، عندئذ لا يكون الكلام على نشاطه لسد حاجات حياته، بل يكون على نشاطه للجمع والاكتناز، وهو كلما جمع أكثر ازداد حرصه على الجمع أكثر، ولا يكون لنشاطه

ذلك في الجمع حدود، وهو ما يسمى بالحرص والطمع. وعندما يراد منه ان يعطي، وان يهب وان يمنح، يصاب بمرض آخر هو البخل والامساك، وهو المرض الذي يصفه رسول الله (ص) بأنه «الشح المطاع» وهو تعبير مأخوذ من القرآن حيث يقول:

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفلِحُونَ﴾[٨٢].

فهو اذن صريع مرض نفسي متسلط عليه، ولا يملك على فكره وعقله وارادته هيمنة ولا سلطة، انما الحاكم عليه هو حب المال، دون رقيب من محاسبة منطق او عقل، والا لأدرك انه في موضع البذل والصرف، وعرف ان منفعته ومصلحته وخيره وسعادته ورفاهه في البذل. ولكن بخله يحول دون ذلك.

هذه حالة تنافي الاخلاق. فالحرص والطمع حالة أدنى من مستوى الحيوان، ولهذا نقول انها حالة ضد الاخلاق وهي مرض.

ان الامراض النفسية او الروحية التي تصيب الانسان لا تقتصر على الطمع والبخل، اذ ان هناك احيانا امراضا روحية أعقد بكثير من الامراض الجسمية وأصعب. انها امراض لا تأتلف مع أي منطق سوى منطق ذلك المريض نفسه، وهي التي

---

٨٢ ـ سورة النساء، الآية ١٢٨. وسورة الحشر، الآية ٩.

يطلق عليها في المصطلح الحديث اسم العقد النفسية كالحسد فالحسد حالة عير منطقية، وهي حالة ينسى فيها الانسان نفسه، ولا يعود يفكر في سعادته، بل يكون دائم التفكير في كيف يؤذي الآخرين. انه لا يتمنى اسعاد نفسه، أو اذا فكر في اسعاد نفسه، فانه يفكر عشرة اضعاف ذلك في كيفية انزال الشقاء بالآخرين. فأي منطق يمكن ان ينسجم مع هذا؟ انك لن تجد مثل هذه الحالة عند اي حيوان آخر، بحيث يتمنى حيوان شقاء حيوان آخر وتعاسته فالحيوان همه بطنه فقط. انه الانسان الذي يصاب بهذه الحالات المرضية. ففي الانسان تظهر حالة التكبر، وفي الانسان تظهر العقد النفسية المختفية في باطنه بغير ان يكون له بها علم. هذه مشاكل تخلقها نفس الانسان للانسان. وقد يخدع الانسان نفسه بنفسه. ترى كيف يمكن ان يخدع المرء نفسه؟ انه من التعبيرات القرآنية:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعَاً إِنَّـهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[٨٣]. ان كلمة «تسويل» تعبير عن حالة نفسية دقيقة جدا ترد في القرآن. وهي تعني ان الانسان قد تخدعه نفسه من داخله. ان النفس الانسانية اذا ارادت شيئا تأخذ بتزيينه وتجميله وايجاد المسوغات الكاذبة

---

٨٣ ـ سورة يوسف، الآية ٨٣.

له بحيث ان الانسان يتصور ذلك شيئا حقيقيا، انما هو من عمل باطن الانسان لينخدع به. انه لتعبير عجيب حقا!

واليوم، بعد ان تقدم علم النفس كثيرا وتطور، استطاع علماء النفس ان يصلوا بعمقٍ وبكل دقة الى ان الانسان قد يصاب احيانا بالجنون بغير ان يكون هناك اي سبب عصبي او جسمي، بل بسبب نفسي. من ذلك مثلا اذا اشتدت بالانسان النوائب والمصائب، تقوم النفس بايقاف عمل العقل للتخلص من شر تلك الغصص.

هذا مبدأ من مبادىء علم النفس. وعلى كل حال، فان مسألة كيد النفس ومكرها وتكاثرها لا مع الآخرين، بل مع النفس ذاتها، تعتبر من المسائل المهمة، وهذا ما تنبه له التصوف خير تنبه وعلى الاخص ذلك الجانب الذي يقف فيه الانسان ضد الاخلاق، ويكون مريضا ويضعه في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان. ان المتصوفة يتطرقون الى دقائق هذه الامور تطرقا يدعو الى العجب. كيف استطاع اناس قبل ستمائة سنة وسبعمائة سنة وألف سنة ان يصلوا الى ادق المسائل النفسية التي نقرأ عنها اليوم في علم النفس في القرن العشرين؟ يبدو ان منشأ كل ذلك من القرآن ومنه يستلهم. لقد كانوا اناسا اذكياء استطاعوا من الاشارات الواردة في القرآن ان يتابعوا الموضوع ويتوصلوا الى دقائقه وخفاياه.

فمثلا في قضية «التسويل» نقتبس حكاية من مولوي دليلا على ذلك.

من المعلوم اليوم في علم النفس المعاصر ان هناك امورا تترسب في العقل الباطن في الانسان لا يعلم عنها الانسان نفسه شيئا، لكونها باقية في القعر ولم تطف على السطح بعد. وعندما تتحقق ظروف خاصة ويقع ما يحركها، نجد انها تطفوا فجأة الى السطح من الاعماق بحيث ان صاحبها نفسه يأخذه العجب منها ولا يكاد يصدق ان في اعماق نفسه كانت تنام امور كهذه. وقد يؤمن الانسان احيانا بنفسه، اذ انه ينظر الى دخلته ونفسه فلا يجد فيها ما يكدر صفوها ونقاءها. ليس فيها غل على احد، وليس فيها حسد من أحد، ولا هو متكبر، ولا يزدهيه العجب. وفجأة يحدث ما يحمل هذا الانسان الى النظر الى نفسه ليجدها قد امتلأت تكبرا وعجبا وحسدا وحقدا، تفور من اعماقه لا آخر لها ولا اول.

فيقولون ان نفس الانسان اشبه بالافعى، فهذه تدخل في سبات في فصل الشتاء بحيث انك ان لمستها لا تتحرك، بل ويلعب بها الاطفال، فيظن الانسان انها قد راضت واستكانت. الا انها ما ان تصطلي بدفء الشمس وحرارتها حتى تنقلب رأسا على عقب. وللملا الرومي حكاية مفصلة بهذا الخصوص.

وفي مواضع اخرى يصفون نوازع النفس بدقة تحير

المحللين النفسانيين. من ذلك قولهم:

میل هاهمچون سگان خفته اند
اندریشان خیروشر بنهفته اند
چونکه قدرت نیست خفته آن رده
همچو هیزم پارها وتن زده
تاکه مرداری آید در میان
نفخ صور حرص کوبد برسگان
چون در آن کوچه خری مردار شد
صدسگ خفته بدان بیدار شد
حرص های رفته اندر کتم غیب
تاختن آورد وسربرز دزجیب
گوبموی هرسگی دندان شده
وزبرای حیله دم جنبان شده[84]
صد چنین سگ اندر این تن خفته اند
چون شکاری نیستشان بنهفته اند

* * *

(ان الميول كالكلاب النائمة
فيها الخير والشر مختفيان)

---

٨٤ ـ مثنوي، ص٤٣٧.

(نـائـمـات لافـتـقـارهـنّ الـى الـقـدرة
كـقـطع مـن الاخـشـاب وكـالـمـتـعـب)
(حتى تـظهـر بـينـهم جثـة من الـخبـث
فيثيـر نفـخ الصـور الشهـوة في الكـلاب)
(اذا مـات حـمـار فـي ذلـك الـزقـاق
اسـتـيـقظ مئـة كـلب نـائـم بـذلـك)
(والاهــواء الـدفـينـة فـي كتـمـان الغـيب
تـراكضت واخـرجت رؤوسهـا من الجيب)
(وكـأن شعـر كـل كلب صـار أسـنـانـا
وراحت الـذيـول تهـتـز حيـلة وخـداعـا)

الى هنا يكون الموضوع صحيحا ودقيقا، وهناك شواهد من القرآن والحديث كثيرة تؤيده. فهذه النفس يجب ان نجالدها وان نجاهدها. والقرآن يقول علينا ان نبارز انفسنا الامارة بالسوء:

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وآثَرَ الْحَيَاةَ فِإنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ وأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾(٨٥).

٨٥ ـ سورة النازعات، الآية ٣٧ ـ ٤١.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ إتَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[86].

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي، إنَّ النفس لأمّارَةٌ بالسوء﴾[87].

ان يوسف، وهو على ذلك القدر من الثقة بنفسه، عندما يقول ﴿إنَّ النفس لأمّارَةٌ بالسوء﴾ انما يقصد الى القول بأن هذه النفس الانسانية من التعقيد بحيث انه يمكن ان ينخدع بها، وان يكون هناك مالا يفهمه الانسان، ولذلك فانه لا يبرىء نفسه، تلك هي خصله المؤمن، انه لا يعتمد على نفسه في عدم ارتكاب اثم.

إنَّ كلمة الجهاد مع النفس من التعبيرات الاسلامية، فمرة عاد بعض الصحابة من احدى الغزوات الى حضرة رسول الله (ص)، فيتطلع اليهم النبي الكريم ويقول:

«مَرْحَباً بِقَوْمٍ قَضَوا الجِّهَادَ الْأَصْغَرَ وَبَقَىٰ عَلَيْهِمْ الجِّهَادُ الْأَكْبَرُ»[88].

فقالوا: وما الجهاد الاكبر يا رسول الله؟

فقال: «جهاد النفس».

---

٨٦ ـ سورة الجاثية، الآية ٢٣.

٨٧ ـ سورة يوسف، الآية ٥٣.

٨٨ ـ وسائل الشيعة، ج١١، الباب الاول، ص١٢٢.

هذا كله صحيح. ولكننا نلاحظ احيانا في اقوال كبار رجال المتصوفة، فيما يتعلق بجهاد النفس ومكافحة الانانية، امورا لا يؤيدها الاسلام. من ذلك مثلا القيام بالرياضات الشاقة، فهنا يقف الاسلام ليقول: إنَّ لجسمك عليك حقا. لقد اراد نفر من اصحاب النبي ان يفرضوا على انفسهم تلك الرياضات الشاقة، فحارب النبي ذلك، منهم بشدة. الا اننا ما زلنا نشاهد اناسا يروضون انفسهم واجسامهم على رياضات شاقة لا يرتضيها الاسلام. ان هذه الرياضة على نوعين:

١ ـ الرياضة الجسمية، وهي ان تجعل جسمك يعاني من بعض الصعاب، كالأكل القليل، أو النوم القليل.

٢ ـ محاربة الروح والنفس، اي العمل على خلاف ما تهوى النفس. ولهذا حدوده المقبولة، ولكننا نلاحظ هنا امورا لا تنسجم مع تعاليم الاسلام، فانسان الاسلام الكامل لا يكون هكذا. من ذلك مثلا ذلك الاسلوب المتبع عند المتصوفة ـ لا عندهم جميعا، ولكنه كان له تأثيره على الجميع ـ وهو اسلوب اللوم والتقريع. وهو اسلوب يكون نقيض الرياء. فالمرائي يكون فاسدا في باطنه ولكنه يتظاهر بالصلاح. اما الملوم فهو الانسان الصالح فعلا ولكنه يتظاهر بالفساد لئلا يؤمن به الناس، انه لا يشرب الخمر ولكنه يتظاهر بأنه يشربها. وهو لا يقرب الزنا ولكنه يفعل ما يوحي بأنه يقربه.

يقول: انني افعل ذلك لكي اقتل النفس واهواءها. وانه حقا لصراع قاسٍ مع النفس. فالنفس تريد ان تكون لها كرامة بين الناس، وان تمشي مرفوعة الرأس، وان تكون موضع ثقتهم. فهل ينسجم هذا مع الاسلام؟ كلا، فالاسلام يقول: عرض المؤمن ليس طوع اختياره، اذ لا يحق له ان يرتكب ما يخدش عرضه واحترامه وشرفه ومقامه بين الناس. يقول الاسلام: اذا لم تكن صالحا فلا تنافق ولا تتظاهر بالصلاح. وليس لك في الوقت نفسه ان تتظاهر بالفساد كذباً، فكلاهما كذب، كذب عملي. ان من الأمور التي تسببت في ان تظهر في الادب الصوفي معانٍ معنوية رفيعة ومقدسة في لبوس الفاظ دالة على الفسق والفجور، على لسان العاشق او المعشوق، او على لسان الخمر والناي، هو هذه المحاولة في التظاهر بما لم يكونوا من اهله. وهذا كثير الورود عند حافظ، على الرغم من ان حافظا يعلن احيانا انه ليس مرائيا ولا من اهل الملامة:

دلا دلالت خيرت كنم براه نجات
مكن به فسق مباهات وزهدهم مفروش
(ايها القلب ألا أدلك على الخير للنجاة
فلا تتباه بالفسق ولا تعرض الزهد للبيع).

على كل حال، فان اسلوب اللوم هذا من اساليب مجاهدة النفس عند اهل التصوف، وهو مما لا يرتضيه الاسلام. الا ان

الذي لا شك فيه هو ان هـذا لم يكن منتشرا بين جميـع أهل التصوف، بل ان السائد بينهم كـان التمسك بـآداب الشريعـة تمسكا شديدا جدا، مثـل الخواجـة عبدالله الانصـاري الا ان اسلوب الملامة كان متفشيا بين اكثريتهم، وعلى الاخص بين متصوفة خراسان.

في مدرسة التصوف هذه نجد احيانا انهم يرتضون الدناءة والضعة لكي يروضوا هذه النفس ويذلوها ويمنعوها عن اصدار الأوامر. فالمتصوف لا يدافع عن كرامته، مثلا، مع قدرته على ذلك. وهذا الذي نطلق عليه اسم عزة المؤمن لا معنى له عند بعض اهل التصوف. ان على «السالك» في التصوف ان يخدم شيخه واستاذه. وكثيرا ما يأمره الشيخ ان يقوم باعمال منحـطة ودنيئـة. يطلب منـه، مثـلا، ان يشتغـل مـدة في جمـع روث الحيوانات، او ان يعمل كناسا، وما الى ذلك، قائلين ان هذه الاعمال تحطم نفس الانسان. وقد يقومون في ظـروف اخرى بأعمال اشد ما تكون انحطاطا وضعة يرفضها الاسلام رفضا باتا.

ينقل ابن ابي الحديد عن ابراهيم الأدهم، احـد مشايـخ الصوفية، انه قال انه لم يفرح في حياته بقدر ما فرح في ظروف ثلاثة. يقول:

١ ـ كنت مرة مريضا مسجى في احد المساجد، واذ رآني خادم المسجد، بعد ان اخرج الجميع انني لا استطيع النهوض،

سحبني من قدمي، كما تسحب الجثة الهامدة، ورمى بي خارج المسجد. وهذا ما افرحني لأني لاحظت هنا ان النفس المتعالية قد اهينت وأذلت.

٢ ـ كنت مرة على ظهر سفينة مع اناس كثيرين، وكان من بينهم احد المهرجين يضحك الناس بحركاته وهو يتوسط حلقة من المتفرجين. وفجأة قال: رأيت مرة احد الكفار في المدينة الفلانية، فذهبت اليه وامسكت به من لحيته وسحبته. ثم راح المهرج يتطلع الى وجوه المتحلقين حوله ليختار منهم من يمثل عليه، فلم يجد أحط مني، فاقترب مني وقبض على لحيتي وجرني الى وسط الحلقة، فضحك الناس ففرحت كثيرا لأن النفس هنا قد اهينت وحقرت، تحقيرا شديدا.

٣ ـ ومرة اخرى كان ذلك في الشتاء. كنت في مكان ما، فخرجت ارتدي (فروتي) فلاحظت انها تموج بالقمل بحيث لم اعرف ان كان شعر الفروة اكثر عددا ام القمل، فكان هذا مدعاة لسروري.

نعم، كانوا يرون في هذه الأمور مجاهدة للنفس. ولكنها مجاهدة يرفضها الاسلام. فلماذا؟

لأن الاسلام لا يرتضي ان يهان المسلم، كما فعل ذلك المهرج لأجل ان يضحك الناس، وذلك لأنه ارتكب باطلا وامرا

مخالفا. لقد فعل ذلك متعمدا. والباطل الآخر هو ان هذا استسلم له. كلا. ان الاسلام يقول ان نفس المؤمن عزيزة ومحترمة. ان التعاليم الاسلامية توجب على ابراهيم الادهم هذا في حكاية المهرج ان يقاومهم، وان ينهاهم عن المنكر، وان يدافع عن نفسه.

يقول صوفي آخر: دعاني احدهم الى الافطار في بيته في شهر رمضان المبارك. فذهبت الى بيته ولكنه اوصد الباب ولم يدخلني. وفي اليوم التالي دعاني مرة اخرى للافطار، فذهبت فلم يدعني ادخل ثم قال لي: ما أصلفك! كلما طردتك اتيتني مرة اخرى، كالكلب.

ان الاسلام لا يسمح لأحد ان يحتقر نفسه الى هذا الحد.

صحيح اننا في الاسلام نصل الى حيث تجب مجاهدة النفس واماتتها. ثم تصل الى حيث يتحدث الاسلام عن عزة النفس وقوتها وكرامتها، فيقول ان نفس المؤمن عزيزة ومحترمة. بل ان اخلاق الانسان كلها مبنية على اساس اهتمام الانسان بكرامة نفسه وعزتها وشرفها، ويطلب من الانسان ان لا يلطخ كرامته وشرفه. انه من جهة يطلب الجهاد مع النفس، ويطلب من جهة اخرى نقاء شرف الانسان وعزته. فكيف يكون هذا؟ أهناك نفسان علينا ان نحارب احداهما وان نحترم الاخرى؟.

الجواب هو انه ليس هناك نفسان بمعنى وجود شخصين اثنين. بل هناك نفس واحدة، وهذه النفس هي التي لها درجات عليا وسفلى، مراتب رفيعة ومنحطة. فهذه النفس تكون شريفة في درجاتها العليا، وتكون دنية في درجاتها السفلى. فان هي ارادت ان تمد قدمها الى ابعد من بساطها فينبغي كبحها. هذه الناحية لم تلق العناية الكافية من لدن اهل التصوف كما يلزم، ولهذا فحيثما يأتي كلامهم على الجهاد مع النفس، تدخل النفس الشريفة في هذا الجهاد ايضا، ولا يقتصر على جهاد النفس الامارة بالسوء. لذلك يجب ان نعرف من هي «انا» الانسان الحقيقية وما هي.

ان للفلاسفة في هذا نظرية خاصة. انهم يقولون ان «انا» كل انسان هي نفسه، روحه. اما علم النفس الحديث فقد استطاع ان يصل، في الأقل، الى ان «انا» الانسان (ذلك المقدار الذي تحس به انه جزء من «انا» المخاطب) او ان قسما كبيرا من «انا» ك هي، «انا» ك المجهولة التي انت نفسك لا تعلم بوجودها، اي انها لا وجود لها في شعورك الظاهر.

ههنا يأتي رجال التصوف بالعجب. فهم في هذا متقدمون بضع خطوات على علماء النفس المعاصرين، ويخالفون الفلاسفة الذين قالوا بأن «انا» الانسان هي نفسه او روحه، بل هي أدق بكثير مما يدعوه الفلاسفة بروح الانسان.

انهم يقولون: ان كل امرىء انما يستطيع ان يكتشف «انا» الحقيقية اذا كان قد اكتشف الله، وان شهود «انـا» الانسان لا يختلف عن شهود الله، كما جاء في القرآن:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فأنساهم أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٨٩].

هؤلاء يدركون بعمق ان «انا» الانسان اعمق بكثير من هذا الذي يقول به الفلاسفة، فهذا محي الدين العربي، ابو التصوف الاسلامي واستاذ جميع متصوفة القرن السابع وما بعده ممن كان لهم تصوف نظري (وقد اتسع التصوف من الناحية الفكرية اتساعا كبيرا، سواء الذي كتب فيه بالفارسية أم العربية) يستهين بآراء فلاسفة من امثال ابن سينا. ويقول القرآن):

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خسرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾[٩٠]. ان روح العبادة وحقيقتها هي استعادة الانسان نفسه الحقة.

وعليه، فاهل التصوف قد اكتشفوا هذا الموضوع الى هذا الحد. الا اننا في الوقت نفسه، فيما يتعلق بعزة النفس وكرامتها ووصايا الاسلام بانها ينبغي ان تصان من كل ما يهدر كرامتها

---

٨٩ ـ سورة الحشر، الآية ١٩.

٩٠ ـ سورة الزمر، الآية١٥.

ويثلم شرفها وان هذه التعاليم في الواقع هي التي تصل بالانسان الى المقامات الرفيعة السامية، لا نجد من ذلك عند اهل التصوف الا القليل القليل، اذ هم اهملوا هذا الجانب من التعاليم الاسلامية.

بالاضافة الى كل ما قيل، نجد في الاسلام «نهي النفس عن الهوى» و﴿ان النفس لأمارة بالسوء﴾و ﴿قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾ و«موتوا قبل ان تموتوا»، ثم هنالك ايضا من جهة اخرى الاعتماد على عزة النفس ﴿وَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ وِلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٩١].

وكما قال رسول الله (ص): «اطْلُبُوا الْحَوَائِجَ بِعِزَّةِ ٱلْأَنْفُسِ فَانَّ ٱلْأُمُورَ تَجْرِي بِٱلْمَقَادِيرِ»[٩٢].

فليس لك ان تقول: إنني لكي اكسر شوكة نفسي استجدي الناس. فان كانت لك حاجة عند احد فالاسلام يريدك ان تطلبها منه بعزة نفس. ويقول علي (ع) في ساحة الحرب:

«الْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ»[٩٣].

---

٩١ ـ سورة المنافقون، الآية ٨.

٩٢ ـ نهج البلاغة، من كلامه ٣٢٥.

٩٣ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٥١.

ويقول سيد الشهداء الحسين (ع):
«مَوْتٌ فِي عِزٍّ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي ذِلٍّ»[٩٤].

فهو لا يقول ان الجهاد مع النفس يقتضي ان نستسلم لحكم يزيد وابن زياد، فيكون جهادنا مع النفس بذلك أكثر. ابدا، فهذا مالا يسمح به الاسلام:

«أَلَا وإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ: بَيْنَ السِّلَةِ وَالذِّلَةِ، هَيْهَات مِنَّا الذِّلَّةُ، يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ. وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ...»[٩٥].

«لَا وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكُمْ بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ، وَلَا أُقِرُّ فِرَارَ الْعَبِيدِ»[٩٦].

يكثر كلام من هذا القبيل في القرآن وفي الحديث وفي اقوال الائمة عليهم السلام:

الموت خير من ركوب العار
والعار أولى من دخول النار

«فمن كان باذلا فينا مهجته، موطنا على لقاء الله نفسه،

٩٤ ـ حياة الامام الحسين، ج١ ص١٨٣.
٩٥ ـ مقتل الحسين للمقرم ص٢٨٧.
٩٦ ـ اعلام الورى للطبرسي ص٢٤٢.

فليرحل معنا، فاني راحل مصبحاً ان شاء الله».

وعليه، ففي الوقت الذي نجاهد فيه النفس ونكبح جماحها، علينا ان نحافظ على شرفها وكرامتها. وهذا نقد آخر موجه الى سلوك المتصوفة من وجهة النظر الاسلامية، لأنهم، كما يتضح من ادبياتهم يذهبون في جهاد النفس مذهبا تداس فيه عزة النفس وكرامتها. فعندما نزن ذلك بميزان الاسلام ندرك ضرورة تصحيح ذلك المسار.

والمدرسة الاخرى هي مدرسة القوة، حيث الكمال مقصور على القوة، والنقص مقصور على الضعف، بل حتى ان الصلاح والفساد يقاسان بهذا المقياس، فالصلاح هو القوة، والصالح هو القوي، والفساد هو الضعف، والفاسد هو الضعيف. لقد اعتاد الفلاسفة ان يشرحوا المواضيع على اساس الكمال والنقص، ويرون ان هذا هو اساس الخلق الانساني الرفيع.

ثمة فيلسوف الماني معروف اسمه (نيتچه) اصيب بالجنون في اواخر ايامه، الا ان امارات الجنون في رأيي، كانت ظاهرة عليه منذ اوائله. وهو اديب قدير. اعلن ان القوة هي اصل الاخلاق.

هنا ينبغي ان نورد مقدمة، وهي انه منذ حوالي اربعة قرون حدث تطور في العلم وفي المنطق وطليعة هذا التحول فيلسوفان

احدهما انگليزي والآخر فرنسي، الانگليزي هو (بيكن) والفرنسوي هو (ديكارت) وكلاهما فيلسوفان معروفان. جاء هذان، وعلى الاخص بيكن، بنظرية في العلم قلبت جميع النظريات السابقة، وقد ادت تلك النظرية الى تقدم العلوم وهيمنة الانسان على الطبيعة هيمنة عظيمة كما انها في الوقت نفسه، ادت الى فساد الانسان. أي ان هذه النظرية سخرت الطبيعة للانسان، وافسدت الانسان بيد الانسان.

فما هي تلك النظرية؟ قبل بيكن، كان مفكروا البشر والفلاسفة والاديان يضعون العلم في خدمة الحقيقة، لا في خدمة القوة والقدرة. فكانوا يحثون الانسان على التعلم ويرغبونه في العلم، وعلى الاخص الاديان، على اعتبار ان العلم يوصل الانسان الى الحقيقة. ولهذا السبب كان العلم مقدسا، كان حقيقة مقدسة، ترتفع فوق منافع الانسان المادية. كانوا يضعون العلم في قبال المال، كما يتضح ذلك في الآداب الفارسية والعربية، حيث يرجحون العلم على المال. من ذلك اقوال الامام علي (ع) في نهج البلاغة، حيث يقارن بين العلم والمال ويفضل العلم على المال.

«. . . الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ. الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. والْمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْانْفاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ. . . الْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ. . .

هَلَكَ خُـزَّانُ ٱلأَمْـوالِ وَهُمْ أَحْيَـاءٌ، وٱلْعُلَمَـاءُ بَـاقـُونَ مَـا بَقَىٰ الدَّهْرُ. . . »[٩٧].

كما قال ايضا «مَنْ علَّمني حَرْفاً فَقَدْ صَيَّرَني عَبْدَاً».

اما القرآن فانه يقدس العلم ويرفع من شأنه، كما في قصة خلق آدم وتعليمه الاسماء وسجود الملائكة له:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلىٰ الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِؤُوني بأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. . . قَالَ يـا آدَمُ انْبِئْهُمْ بِأَسمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وٱلأَرْضِ وأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. وإذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ آسْجُدُوا لأدَمَ فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِيسَ﴾[٩٨].

أما بيكن فقد قال ان العلم شغلة للناس، وان ما يقال عن ان علينا السعي وراء العلم لأنه وسيلة لكشف الحقيقة وانه بـذاته حقيقة مقدسة، ليس صحيحا، بل على الانسان ان يجعل العلم في خدمة الحيـاة، وان العلم الاجود هـو العلم الانفع لحيـاة الانسان، وان العلم الأفضل هو العلم الأقدر على السيطرة على الطبيعة وعلى منح الانسان القـوة والقدرة. وهكـذا فقد العلم

---

٩٧ ـ نهج البلاغة. كلام ١٤٧ ص٤٩٥.

٩٨ ـ سورة البقرة، الآيات ٣١و٣٣و٣٤.

صفته السماوية وانحدر الى الارض واتخذ صفته المادية، فغير مسيرته واتجه نحو كشف اسرار الطبيعة ليعرف كيف يشدد من قبضته على الطبيعة. فما الذي يحصل اذا سيطر الانسان على الطبيعة؟ يحصل انه يعيش عيشة راضية مرفهة.

لاشك ان هذا كان من ناحية خدمة عظيمة للبشر، فقد وضع العلم على مسيرة اكتشاف الطبيعة، وترويضها والانتفاع بها. فمن هذا المنظور كان هذا التغير حسنا، الا ان العلم من ناحية اخرى فقد قدسيته ومقامه الرفيع. انك الآن اذا نظرت الى طلاب العلوم الدينية الذين يدرسون هذه العلوم وفق المقاييس القديمة في الحوزات العلمية، لوجدت انهم ينظرون الى العلم بذلك التقديس والاحترام السابقين ذاتيهما اللذين يردان في كتب مثل (اداب المتعلمين) و(منية المريد)، وهي كتب تستند الى الروايات والاحاديث وامثالهما. ولقد جاء في هذه الروايات اننا اذا شئنا حضور احدى حوزات الدرس علينا ان نتطهر وان نتوضأ ثم نحضر حلقة الدرس. والمعلم يحمل للطالب في قلبه كل تجلة واحترام وقدسية، كما ان الطالب يحمل في اعماقه لذلك المعلم كل اجلال وخضوع.

ان الطالب ليخجل من نفسه اذا قيل انه يطلب العلم للحصول على المال. كذلك المعلم اذا اتهم بانه يقوم بالتدريس لقاء اجر، فهذا يعتبر حطا من مقام العلم، اما في التعليم والتعلم

المعاصرين اللذين يسيران على منهاج بيكن، فلا تعثر فيهما على اثر من تلك القدسية والاجلال ان الطالب المعاصر يرى انه بدراسته يهيىء المقدمات لضمان حياته ومعيشته، وهو لا يقبل على دراسة الطب او الهندسة الا ليضمن لنفسه حياة مرفهة. كذلك الصبي الذي يذهب الى السوق ويشتغل (صانعا) عند تاجر، فهو ايضا يبحث عن المال. وهكذا المعلم الذي يتقاضى بضعة آلاف من التومانات ليأتي الى المدرسة ويلقي على التلاميذ ما يعرف ويذهب الى حال سبيله. لذلك لا يستبعد ان نجد بعض التلاميذ يشتم بعض اساتذته من وراء ظهورهم بغير ان يداخله أي خجل من نفسه.

جاء بيكن ليقول: العلم في سبيل القوة. العلم في خدمة القوة والمعرفة، لا لشيء آخر. في بداية الأمر لم يظهر اثر هذه النظرية السيء للعيان، ولكن بالتدريج، وبالنظر لأن الانسان لم يطلب من العلم سوى القوة والقدرة، وصل الى حيث وضع كل شيء في خدمة القوة. واليوم تدور عجلة الدنيا على اساس وضع العلم في خدمة القوي. لم يحدث في تاريخ العالم أن كان العلم واقعا في أسر القوى الكبرى كما هو الآن، ولا كان علماء الطراز الأول في العالم هكذا في القيود والزنزانات. انهم علماء عظام مثل انشتاين، ولكن ترى من يخدم بعلمه؟ انه يخدم، مثلا، روزفلت. انه من خدام روزفلت، وليس بمقدوره ان لا

يكون. ولا يختلف هذا في معسكر الامپريالية عما هو عليه في معسكر الاشتراكية فالعلم اليوم في كل مكان يخدم القوي، والعالم اليوم يديره الاقوياء، لا العلم. ان قولنا ان العالم اليوم عالم العلم ينبغي أنْ يُصَحَّح بعض الشيء. ان عالمنا عالم القوة لا عالم العلم، ونعني بذلك ان العلم موجود فعلا، ولكنه ليس علما حرا. انه علم اسير ومقيد لأنه يخدم القوة. فكل اختراع واكتشاف يؤخذ اول الأمر الى حيث تصنع الاسلحة الفتاكة المدمرة تقتل الانسان، والفائض منه يوضع في خدمة الامور الاخرى. كل اختراع واكتشاف لا ينفع في قتل الانسان، ولا ينفع القوة والتسلط، يرسل الى الميادين الأخرى، بل ان يخفون الاختراعات والاكتشافات ويعتبرونها سرا من الأسرار حتى يحين وقت اعلانها.

ان الطريق الذي اختاره بيكن ينتهي، شاء ام أبى، الى ما قاله (نيتچه) وما قاله (مكيافيللي) وعلى الاخص ما قاله (نيتچه). ثم ظهر في العالم أمر آخر اصبح دعامة اخرى من دعائم هذه النظريات وذلك هو نظرية (داروين) في اصل الانواع.

كان (داروين) من المسيحيين المتدينين المؤمنين بالله، ولقد جاء في سيرته انه عند احتضاره طلب الانجيل وألصقه بصدره. كما انه في كثير من اقواله يعترف بوجود الله ولا ينكره، ويحترم المسيح الا ان نظريته أُسيء استغلالها كثيرا بما لم يكن

هو نفسه يرمي اليه .

من هؤلاء مثلا الماديون الذين جعلوا من نظريته في اصل الانواع وسيلة لانكار وجود الله . ولهذا قصة طويلة . ومن النواحي الاخرى التي أسيئت فيها الاستفادة من نظرية داروين هي الناحية الاخلاقية ، في ميدان صنع الانسان الصالح ، الانسان النموذجي ، الانسان الأسمى ، الانسان الكامل ، وذلك لأن نظرية داروين كانت تعتمد في احدى اسسها على مبدأ تنازع البقاء والبقاء للأصلح وهو المبدأ القائل بأن جميع الاحياء في هذه الدنيا في حالة حرب دائمة بعض مع بعض ، فمن كان أقوى بقى في غربال الطبيعة ، الصراع غربال الطبيعة ، ففي هذه الحرب تغربل الطبيعة الاحياء ، وتنتخب الاصلح للبقاء ، اي الذي استطاع في ميدان الحرب ان يحافظ على حياته .

لقد اوردوا بعض الاعتراضات على هذه النظرية . من ذلك بقاء بعض الاحياء لا لكونها الأقوى والأصلح للبقاء كما يقول داروين . الا ان (نيتچه) استنتج من ذلك ان الاساس في حياة الاحياء كلها بما فيها الانسان ، هو الصراع وتنازع البقاء . وجعل هذا قاعدة رئيسة في حياة الانسان ، فالانسان الأقوى هو الذي يبقى ، والحق ايضا يكون بجانب هذا الذي يبقى . ثم يقول ان الانسان يسير نحو الانسان الاسمى او الأعلى حتى يبلغ الانسان الكامل .

نسأله: من الانسان الكامل؟ فيقول: هو الانسان الأقوى، الانسان الذي ليست فيه اخلاق الضعفاء. فنسأله من اخلاق الضعفاء، فيقول: هي تلك الصفات التي تدخل ضمنها المحبة والاحسان وخدمة الآخرين وامثالها. يقول: هذه ليست اخلاقا، انها هي التي حطمت البشرية، وهي التي تقف دون تكامل الانسان، وهي التي تمنع ظهور الانسان الأسمى، الانسان الأقوى، الانسان الكامل. ان الانسان الكامل هو الذي لا نجد فيه هذه الصفات التي هي نقاط ضعف والتي نحسبها من صفات التكامل وعليه فسقراط والمسيح كلاهما من الاعداء. فقد جاء في اخلاقيات سقراط توصياته بالعفة والطهارة والعدالة والعطف وامثالها. يقول (نيتچه) ان سقراط قد اخطأ، وأشد منه خطأ هو المسيح الذي لم يتعب من الايصاء بالتسامح والمحبة والعطف. هذه نقاط ضعف الانسان، وكلما ابتعد الانسان عن هذه ازداد قربا من الكمال، لأن الكمال هو القوة، والنقص هو الضعف. ونقاط الضعف هذه تنشأ عن النقص. وهكذا نجد كيف ان ذلك يؤدي الى الانحراف، ولكي نلقي مزيدا من الضوء على هذا الموضوع نستشهد ببعض اقوالهم:

يقول (فروغي) في «سير الحكمة في اوروبا»: جميع علماء الدنيا يعتبرون حب الذات من الامور المذمومة، ويستحسنون حب الناس والشفقة. ولكن (نيتچه) بخلاف اولئك يرى حب

الذات حقا والشفقة ضعفا وعيبا، واكد مقولة (شوبنهاور) بـأن الأصل في العالم هو ارادة الحياة، ولكنه يخالف في قوله بان هذا أمر سيء، ويقول ان الوجود هو طلب الوجود، وهو ما يجب ان يكون، وهو أمر حسن، وان ارادة الحياة، هي الواقع، هي ارادة القوة، (نيتچه) يقتبس من (داروين) تنازع البقاء ويقول بصحته، بخلاف الذين اكدوا خطله. يقول: ان على الناس ان يتصارعوا ويتنازعوا للحصول على القوة لكي ينتصروا. ان الذين يريدون الخير للعالم، يرون ضرورة العناية بالاكثرية، ويعتقدون ان مدار الدنيا قائم على صلاح حـال العامـة. اما (نيتچـه) فقد اعتبـر الأكثرية من المنحطين الاذلاء، والأقلية النخبة هي وحدها التي لها كل الحقوق. إنَّ بنية (نيتچه) الفكريـة تستند الى ان على المرء ان يكون أقوى ما يمكن في حياته، وأشـد، وأرفه، وان تكون نفسه اكثر تفتحا وأقوى، وان يمتعها بما تحب وتشتهي، وان البحث في هل الحياة حسنة او سيئة وما هي حقيقتها بحث لا طائل تحته.

يقول بعضهم كان من الخير ألا نولد. لا أدري، فلعل هذا هو الصحيح. ولكن الذي ادريه هو انني قد دلفت الى هذه الدنيا، سواء أكانت حسنة أم سيئة، فلا بد ان اتمتع بالدنيا، والأكثـر تمتعا هو الأفضل. وكل ما يوصلني الى هذه الغاية، حتى وان اتصف بالقسوة والعنف والمكر والخداع والصراع والحرب، فهو

حسن، وكل ما يمنعني من الوصول الى تلك الغاية، حتى وان اتصف بالصدق والمحبة والفضيلة والتقوى، فهو سيء. وعلى هذا الاساس رأيُ (نيتچه) في الكمالات والفضائل يناقض ما يراه الآخرون. وكل ما كتبه كرّس نصفه لهدم البناء الاخلاقي الذي بناه السابقون، ونصفه الآخر لتقديم مقترحاته عما يراه هو المطلوب والمستحسن.

يعتقد (نيتچه) ان من البلاهة القول بأن جميع الاقوام والملل والناس متساوون في الحقوق، لأنه قول يتعارض مع تقدم عالم الانسان. يجب تقسيم الناس الى طبقتين: طبقة الأقوياء التي بيدها السلطة وكل شيء، وطبقة العبيد الاذلاء. اما الاصالة والشرف فمن حق الطبقة العليا القوية، فهي غاية الوجود. أما الطبقة الدنيا فهي وسيلة لتحقيق اهداف الطبقة العليا. ان التقدم والتطور في العالم يقوم بهما العظام الاذكياء، وهؤلاء قلة، وعلى الاكثرية ان تكون آلة بيد القلة. ان الهيئة الاجتماعية والمدنية قد انشئت لتحقيق اهداف تلك الطبقة وتقدمها، ولا صحة للقول بأن الطبقة العليا تقوم بالمحافظة على الطبقة الدنيا. ان طبقة الاذكياء والاقوياء يجب ان تتربى تربية عالية لكي يولد منها أناس أسمى يتقدمون نحو مدارج العلى: «وما الدولة والمجتمع الا لكي يصل الاقوياء الى السلطة» و«حكم الضعفاء حكم البهائم التي عليها ان تحمل اثقال

الأقـوياء»[٩٩]. وبخـلاف ما يقـوله سعـدي بأن الاغنـام ليست للراعي، بل الراعي للاغنام، يقول هذا: كلا الاغنام للراعي، وان الاقوياء يجب ان يعـدوا اعدادا لكي يـأتي منهم جيل من الافـراد الأسمى والأقوى ليستمـروا في مراقي الصعـود. ولقد بحث بعض علماء الغرب موضوع تحسين النسل ونقاوة العنصر، ومنهم (الكسيس كارل) الذي يتناول هذا الموضوع في كتـابه (الانسان، هذا الكائن المجهول) فيرى ان حق التناسل يجب ان يمنع عن الضعفاء.

ان المبادىء الاخلاقية التي اتبعها الناس حتى الآن كانت في صـالح العـامة والأكثـرية، اي الـطبقة الـدنيا، لا الـطبقـة المستعلية الشريفة. ولذلك يجب محو تلك المبادىء الاخلاقية والاستعاضة عنها بما يكون في صالح طبقة الاشراف. ان الخير والصدق والجمال ليست من الامور الحقيقية. ان الحقيقة الحقة هي ان كل فرد يريد التوصل الى القوة.

ان الاديان قد خانت البشرية بدعوتها الى العدالة والدفاع عن الضعفاء. كانت الازمان الخالية من الاديان خيرا، يوم كان قـانون الغـاب هو السـائد في العـالم، فكل قـوي كان يـأكل الضعيف، وكان نسل الضعفاء آخذا بالزوال.

---

٩٩ ـ سير الحكمة في اوروبا، ج٣، ص١٩٨.

كانت الدنيا في اول الأمر تجري على وفق هوى الاقوياء، وكان الضعفاء عبيدا لهم. ولكن الاقوياء قلة، والضعفاء كثرة، فجعلوا تلك الكثرة وسيلتهم للتقدم، واستعانوا في ذلك بالحيلة والتدبير والخداع فادخلوا في الاذهان مبادىء الرأفة والشفقة والتواضع وحب الخير والمحبة والعدالة والكرامة بهيئة الخير والصدق والجمال، وحملوهم على قبولها لكي يقدروا قوة الأقوياء ويتخلصوا من عبوديتهم لهم، واستخدموا الاديان لهذا الغرض وجعلوا اسم الله حصنا لهم. وهذا بالضبط هو النقطة المقابلة لنظرية كارل ماركس، الذي يقول: ان الدين من مخترعات الاقوياء ضد الضعفاء. ونيتچه يقول: ان الدين اخترعه الضعفاء ضد الاقوياء. كلاهما ضد الدين، ولكن هذا يعزو الدين الى الضعفاء لأنه يزعم انه الى جانب الاقوياء، والآخر يعزوه الى الاقوياء لأنه يدافع عن الضعفاء، وان الاقوياء اخترعوا الدين ليحولوا دون ثورة الضعفاء عليهم. ثم يهاجم سقراط وبوذا والمسيح.

يقول: ان الاخلاق المسيحية اخلاق العبيد، وقد قضت على اخلاق السادة. ان الحديث عن الاخوة والمساواة والسلام ورعاية حقوق المرأة والكادحين، وامثال ذلك من الاقوال، تستقىٰ من المسيحية وهي كلها خداع وتزوير، وتؤدى الى الفقر والضعف والانحطاط. فيجب القضاء على هذه المبادىء واقامة

المبادىء الخاصة بحياة السادة. فما هي مبادىء حياة السادة؟ يجب التخلي عن فكرة الله والحياة الآخرة، ويجب ابعاد الرأفة ورقة القلب. فالرأفة من العجز، والتواضع والخضوع من الخنوع، والحلم والصبر والعفو والتغاضي من ركود الهمة والتراخي. يجب اختيار الرجولة. على البشر ان يصلوا الى مرحلة الانسان الاسمى «السوپرمان»، الانسان الذي يكون ارفع من الصلاح والفساد، والذي يملك عزما وارادة لا يقف امامهما شيء.

الحقيقة ان كثيرا من هذه المدارس ظهرت في اوروبا، ولكن لحسن الحظ لم ينتشر هذا الوباء عندنا. وهكذا تطورت نفسية الغربيين. ان ما يعلنونه عن حقوق البشر ليس الا لخدع الآخرين. ان التربية الغربية واخلاق الغرب لا يعني سوى الأخذ باخلاق مكيافيللي ونيتچه. ان الاستعمار وما يفعله الاستعمار مبني على هذا الاساس. ان النفسية الغربية الامريكية منها والاوروبية نفسية استعمارية واخلاق استعمارية.

انهم عندما يواجهوننا يتحدثون عن حقوق البشر، ونحن السيئي الحظ نبلع ريقنا احيانا ونرطن مثل رطانتهم ونكرر ما يقولون، وانه والله لخطأ، وخطأ عظيم. انظروا الى ما فعلته امريكا في فيتنام. ألم يكن تنفيذا لفلسفة نيتچه؟ إنه هو ولا شيء غيره. انّنا نقول (راسل) قال كذا، و(سارتر) قال كذا وهؤلاء

الغربيون ايضا ليس في رأسهم غير ذاك، كل الاوروبيين يبنون افكارهم على ذلك الاساس، واذا ظهر من هم مختلفون فانهم افراد قلائل لا يعتد بهم.

يقول نيتچه: لماذا نقتل النفس ونـذلها؟ النفس يجب ان تربى. ما معنى عبادة الآخرين؟ يجب ان نعبد انفسنا. يجب نبذ الضعيف حتى يزول من الوجود، وحتى يخف الألم والعذاب من العالم. والرجل السامي هو القوي الذي يحيا بقوة ويحقق اهواءه ورغباته ويتمتع بحياته ويرى نفسه سيدا وربّاً، فاذا ما ظهر ما يقف في طريق سيادته قضى عليه ولا يخشى الاخطار ولا الحروب.

ثم يلتفت الى المـرأة ويقول: ان القـول بتساوي المـرأة والرجل ورعاية حقوقهن من الاقوال الباطلة. الأصل هو الرجل، الرجل هو الذي يحارب، وعلى المرأة ان تكون من اسباب لهو المحارب، وتلد له الاولاد.

وهكذا نجد ان هـذا ايضا من المقـاييس التي يبنى عليها تكوين الانسان الكامل في هذا العالم الانسان النموذجي.

وهناك من جهة اخرى نقطة مقابلة لهذه تدعو للضعف بدل القوة، وترى الخير والصلاح في الضعف امثال هؤلاء موجودون، وهو من الانتقادات التي تـوجه الى المسيحيـة التي تدعـو في اخلاقياتها الى الضعف والتذلل كثيرا، ويستشهدون على ذلك

بقول المسيحية انه اذا لطمك احد على خدك الأيمن فادر لـه خدك الأيسر.

فما قول الاسلام في هذا؟ أيدعو الاسلام الى القوة أم الى الضعف؟ أم انه لم يدع لأي منهما بهذا المعنى، وانما دعا للقوة بمعنى آخر، لا بالمعنى الذي اراده نيتچه، بل بذلـك المعنى الذي تنبع منه كل تلك الصفات الانسانية الرفيعة، تلك القدرة التي تنشأ عنها المحبة والرحمة والشفقة والاحسـان لاشك ان الاسلام يدعو الى القوة، كما ورد في القرآن وفي الاحاديث. ان الذين لهم دراساتهم الاسلامية توصلوا الى انه مـا من دين من الاديان يحث اتباعه اكثر من الاسلام على الحصول على القوة.

يقول (ويل دورانت) في كتابه «تاريخ التمدن» في المجلد الحادي عشر المخصص لتاريخ الحضارة الاسلامية: لم يبلغ اي دين ما بلغه الاسلام في حض الناس على القـوة والقدرة. وهذا موضوع واسع، في القرآن يخاطب يحيـى قائلا:

﴿يـٰا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَـابَ بِقُـوَّةٍ﴾[١٠٠]. وفي مكـان آخـر يتحمس القرآن في وصف المؤمنين بالقوة التي لا تهن ولا تلين:

﴿وَكَـأَيِّ مِنْ نَبِيٍّ قَاْتَـلَ مَعَهُ رِبِّيُّـونَ كَثِيْرٌ فَمـاَ وَهَنُـوا لِمَـا أَصَابَهُمْ﴾[١٠١].

---

١٠٠ ـ سورة مريم، الآية ١٢.

١٠١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

وَ﴿إِنَّ اللّهَ يحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبيِلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنُيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[١٠٢].

و﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[١٠٣].

وكثير غير ذلك.

العزة تعني ان يكون للانسان مقام منيع وان يكـون له من القوة ما لا يستطيع معه احد اذلاله واخضاعه، وقد امتدح الاسلام القوة في مقابلة الاعداء:

﴿وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَـطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَـاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[١٠٤].

﴿وَقَاْتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاْتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوْا إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١٠٥].

نعم، قاتلوا، ولكن لا تعتدوا. اذا استسلم العـدو ووضع سلاحه فيجب عليكم ألا تستخدموا اسلحتكم، والا فانه يكون اعتداء. لا تقتلوا الشيوخ والعجائز والاطفال والنساء ولا تتعرضوا

---

١٠٢ ـ سورة الصف، الآية ٤.

١٠٣ ـ سورة الفتح، الآية ٢٩.

١٠٤ ـ سورة الانفال، الآية ٦٠.

١٠٥ ـ سورة البقرة، الآية ١٩٠.

لهم بسوء، ولا للذين يتجنبون ساحة الحرب، انما الذي يحاربكم حاربوه بقوة. هذه هي التعاليم الواردة في القرآن.

في آيات أخرى. كما ان في الاحاديث الكثير مما يدين الجبن والخوف والضعف، ويمتدح القوة والقدرة بغير ان يكون في ذلك شيء من فلسفة نيتچه.

يقول رسول الله (ص): «لاَ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ بَخِيلاً وَلاَ جَبَاناً»(١٠٦).

وفي دعاء له يقول (ص): «اللّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وأَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُّبْنِ»(١٠٧).

ويقول علي (ع) في المؤمن: «الْمُؤْمِنُ نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ»(١٠٨).

الامام الصادق (ع) يقول: «إنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَوَّضَ إلى الْمُؤْمِنِ أُمُورَهُ كُلَّهاَ وَلَمْ يُفَوِّضْ إلَيْهِ أنْ يَكُونَ ذَلِيلاً». اما تسمع الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ولِلّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. فالمؤمن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا. ان المؤمن أعز من الجبل،

---

١٠٦ ـ جامع السعادات، ج٢، ص١١١.

١٠٧ ـ المصدر نفسه.

١٠٨ ـ نهج البلاغة، الحكمة ٣٣٣.

الجبل يستفل منه بالمعول والمؤمن لا يستفل من دينه شيء»[109].

وجاء عن الامام الباقر (ع) انه قال: إنَّ اللّهَ اَعْطَىٰ الْمُؤْمِنَ ثَلَاثَ خِصَالٍ: الْعِزَّة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ والْخَلَاصِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، والْهَيْبَةِ فِي صُدُورِ الظَّالِمِينَ[110]. أي ان في المؤمن حالة يتهيبها الظالم ويشعر بالخوف منه في قلبه.

وهناك روايات اخرى تروى عن الرسول (ص) والأئمة (ع) تشيد بالغيرة باعتبارها ضربا من القوة، وترى انعدامها ضربا من الضعف.

وثمة كلمة قالها اقبال الباكستاني، ولعله قالها معارضا موسوليني الذي قال: من عنده حديد عنده خبز. اذا اردت ان يكون عندك خبز فليكن عندك حديد. اي السلاح والقوة.

وفي قبال ذلك قال اقبال: من كان حديدا كان عنده خبز. أي ان موسوليني يستند على السلاح وعلى القوة المادية للحصول على الخبز، بينما اقبال يستند الى القوة الروحية فيقول ان من كان حديدا نفسه كان عنده خبز. وهذا يشير الى كلمة

---

١٠٩ ـ سفينة البحار، مادة: فوض.

١١٠ ـ المواعظ العددية ص١٠٣.

الامام علي (ع) القائل ان نفس المؤمن اصلب من الصلد. كل هذا يرمي الى أمر واحد، كما رأينا.

على كل حال، ان الاسلام يدعو الى القوة والقدرة، وفي نهج البلاغة نرى كيف ان عليا (ع) يدعو الى القوة ايضا، ويرى ان الضعف ليس من شيم المجتمع الاسلامي، وهو القائل: «وَاللّهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَط في عُقْرِ دَارِهِمْ إلاّ ذَلّوا»(١١١). او يقول في موضع آخر: «وَلاَ يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيْلُ وَلاَ يُدْرَكُ الْحَقُ إلاّ بِالْجِدِّ»(١١٢).

ولقد قيل ان الحق يؤخذ ولا يعطى. وهذا بحد ذاته مدار بحث، أصحيح ان الحق يجب ان يؤخذ وانه ليس مما يعطى؟ أي ان الحق شيء لا يميل الناس الى اعطائه لصاحبه طوعا، وانما على صاحبه ان ينتزعه انتزاعا. بعض المذاهب تقول ان الحق يعطى، وان على من اغتصبه أن يرده، فان لم يفعل فذلك اليه، ولكن الحق يعطى، ولا يؤخذ.

المسيحية مبنية على هذا الاساس: نطالبهم ان يعطوا حقوق الناس. نوصي ونسترحم ان يعطوك حقك، فلتحذر ان تنهض انت لأخذ حقك، فما ذلك من شأن الانسانية والاخلاق،

---

١١١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

١١٢ ـ المصدر نفسه. الخطبة ٢٩.

ان الحق يعطى . ومع ذلك فهناك من يقول بان الحق يؤخذ، اذ كيف يقوم انسان اغتصب حقا بارجاعه من ذات نفسه؟

اما الاسلام فيرى ان الحق يؤخذ ويعطى . أي يجب النضال على جبهتين لاستيفاء الحق، وهذا هو الاساس الذي بني عليه الاسلام. فالذي يغتصب الحق، يقوم الاسلام، بالتربية والتعليم، بتهيئته واعداده لاعادة الحق المغتصب، ولكن الاسلام لا يكتفي بهذا وحده، بل يقول للذي اغتصب منه حقه : ان الحق يؤخذ، فعليك ان تنهض لاسترجاع حقك.

في العهد الذي عهد به الامام علي(ع) الى مالك الاشتر، وردت عبارة ينقلها الامام عن الرسول الكريم (ص)، وهي عبارة يقول انه سمعها من النبي مرارا.

« . . . فاني سمعت رسول الله (ص) يقول في غير موطن. لن تقدس أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع »[١١٣]، أي أنَّه لا يعترف بذلك الضعيف الذي لا يستطيع ان يطالب بحقه، وان المجتمع الذي يكون فيه الناس على قدر من ضعف النفس بحيث لا يستطيعون المطالبة بحقوقهم، فانه لا يكون مجتمعا اسلاميا. انظروا كيف كان خيارنا في الماضي،

---

١١٣ ـ نهج البلاغة، الرسالة ٥٣ .

وكيف كان رسول الله (ص) نفسه.

لقد كان من مميزات الرسول الكريم قوته الروحية والجسمية. والتاريخ شاهد على مدى قوته الروحية. فكتاب (محمد، النبي الذي تجب معرفته من جديد) يتناول جانبين تناولا جيدا، على الرغم مما فيه من نقاط ضعف كثيرة، وذلك لأن الاجنبي لا يمكن ان يحيط كل الاحاطة بجميع المنابع والمصادر كما ينبغي، ومع ذلك فقد تناول المؤلف جانبيه من حياة الرسول (ص) تناولا جيدا، وهما:

١ ـ كانت الظروف المحيطة بالرسول (ص) ظروفاً ميؤوسا منها من الناحية السياسية والاجتماعية أي ان جميع الظروف كانت ضده، ولم يكن بينه وبين النجاح اكثر من شعرة. ومع ذلك فان النبي الكريم لم يتخل عن ارادته، لقد كانت ارادته في كل الاحوال مثل الجبال الرواسي لم تتزلزل قيد ذرة. ان قوته الروحية خلال تلك السنوات الثلاث والعشرين كانت أمرا عجبا، يحار فيها المرء إنْ تعمق في دراستها، ولقد صدق حسان بن ثابت يوم قال:

له همم لا منتهى لكبارها
وهمته الصغرى أجل من الدهر

٢ ـ اما من حيث القوة البدنية الظاهرة، فقد كان

رسول الله (ص) قوي البنية، شجاعاً، اشبه بالأبطال قامة، لا هو بالسمين ولا بالنحيف، كثير اللحم متماسكه، كما هي عضلات الرياضيين، ملفوفة مرصوصة كان على درجة من الشجاعة بحيث ان عليا (ع) يقول: «كُنَّا إذَا آحْمَرَّ الْبَأْسُ إتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللّهِ (ص) فَلَمْ يَكُنْ أحَدٌ مِنّا أَقْرَبُ إلىٰ الْعَدُوِ مِنْهُ»[١١٤].

في السنة الأولى التي تشرفت فيها بالحج الى بيت الله الحرام، رأيت حلما عجيبا في مكة، لقد رأيت النبي (ص) في المنام فتذكرت عبارة علي (ع) اذ قال: «كنا اذا احمرَّ البأس إتقينا برسول الله» لقد كان قوياً شجاعاً، يقدر القوة، فالاسلام يقول بالقوة للمسلم باعتبارها قيمة من القيم الانسانية العديدة الأخرى، وكل تلك القيم مجتمعة مع بعض تُكوِّن الانسان الكامل الاسلامي.

اما السيد نيتچه فلم ير من القيم سوى هذه القيمة. بالطبع لو انك انتخبت من الشجرة احدا اغصانها وتعهدته بجده، لنما هذا وماتت الاغصان الأخرى. ان اختلاف مدرسة نيتچه عن مدرسة الاسلام هو أنَّ في المدرسة الأولى لا توجد سوى قيمة واحدة، وهي القوة، وكل القيم الأخرى قد ضُحِّيَ بها في سبيلها. ولكن القوة في الاسلام واحدة من مجموعة من القيم الرفيعة الانسانية.

١١٤ ـ نهج البلاغة ص ٥٢٠.

فاذا استقرت هذه القيمة الى جانب القيم الأخرى عند الانسان، اتخذت شكلا آخر، فعندئذ يقاس الحق والباطل. والعدل والظلم، بمقياس القوة والضعف. أي أنَّ الحق ليس مما ينفصل عن القوة، وان الباطل ليس مما ينفصل عن الضعف، وكذلك العدل والظلم، العدل قوة والظلم ضعف. وعليه اذا تشاجر اثنان وكان احدهما أقوى، فان هذا الأقوى - في مذهب نيتچه - يكون هو الأكمل وهو الصالح، وهو صاحب الحق، وهو العادل، ويكون المغلوب المهزوم هو الناقص، لأن الانهزام والضعف هما النقص والسوء والظلم والباطل.

هنالك في هذه المدرسة خطئآن: الأول هو ان جميع القيم الانسانية متروكة فيها ومهجورة عدا قيمة واحدة، وهي القوة، ان القوة، بالطبع، قيمة انسانية، وهي عند الفلاسفة كمال، لأنها تساوي الكمال، لا ان الكمال يساويها، لذلك فان الفلاسفة بعد ان يثبتوا ان الله واجب الوجود وانه وجود محض، وان الوجود المحض يساوي الكمال، يثبتون لله كل ما كان مساويا للكمال بالبرهان، ومن ذلك القوة. ويقولون ان القوة كمال بحد ذاتها وبما هي هي ، مثل ما أنَّ العلم، والارادة، والاختيار، والحياة، كمالات ايضا. لذلك لا مجال للشك في ان القوة في الانسان كمال من كمالاته.

اما المدارس التي تتبنى الضعف، فانها على خطأ كبير.

ولكن القضية هي ان القوة وحدها ليست كمالا ، بمثل ما أنَّ القوة في الذات الالهية ليست وحدها من صفات الألة الكمالية، ففي ذات الله صفات كماليه كثيرة، فله الكثير من الاسماء الحسنى، وان واحدة من تلك الاسماء الحسنى هي «يا قادر» الا انها ليست منحصرة في القدرة.

الخطأ الثاني في هذه المدارس، وهو خطأ اذا لم يكن اكبر من الأول فهو ليس باصغر منه، وهو الخطأ في القوة نفسها. فهي على الرغم من انكارها القيم الانسانية الأخرى عدا القوة، فانها لم تفهم نفسها بالرغم من ادعائها بأنها تعترف بوجودها، وذلك لأنها ترى القوة في شيء واحد، أي انها تعرف القوة في صورة واحدة من صورها، . وهي القوة الحيوانية، القوة الكامنة في عضلات الحيوان. ان جميع قدرات الحيوان قدرات عضلية، هي القوة الموجودة في عضلاته، وكل رغبات الحيوان رغبات جسمية، إنَّ ما يميز البشر هو ان فيه قوة غير قوة العضلات، فاذا فرضنا ان قوة الانسان هي القوة العضلية، فلا يعني هذا صحة ما ذهب اليه السيد نيتچه بأنه ما دام الانسان تابعا للقوة، فعليه ان يسعى للحصول عليها، فاذا نالها فعليه ان ينزل بالضرب على الضعفاء، وان يُنمّي اهواءه النفسية ولا يخالفها ويتيح لها كل ما تحب وتشتهي مع المتع المادية في الدنيا، كلا، إنَّ نتيجة هذه القوة نفسها ليست هذه.

هنا أوَدُّ ان اشير الى الموضوع بمعيار اسلامي افتتحه برواية مــرويــة عن الــرسـول ا(ص). جــاء في كتب الحـديث ان رسول الله (ص) مَرَّ يوما بجمع من الفتية المسلمين في المدينة كانوا قد اتوا بصخرة يتنافسون على ايهم أقوى على رفعها، كما يفعل الربّاعون في ايـامنا هـذه. فقال لهم: أتحبـون ان اكون الحكم بينكم؟ ففرحوا بذلك. فقال (ص): اقواكم من استطاع كبح جماح نفسه الى المعاصي. فهنا كان الكلام على قوة الارادة بازاء الميول النفسية. فالقـوة ليست فيما تستـطيع العضلة من رفعه، فتلك قوة في الحيوانات موجودة.

ولكننا لا نريد بهذا ان نقول ان القوة العضلية ليست كمالا من الكمالات، انما نريد ان نقول ان الارفع من القوة الموجودة في العضلات هي القوة الكامنة في الارادة، وقوة الارادة هي ان يكون الانسان قادرا على الوقوف بوجه اهواء نفسه ومقاومتها. ولذلك فكثيرا ما يرد في آدابنا، وخاصة في الادب الصوفي، ان الارادة القوية منبع للقوة. وقد قال النبي (ص): «اشجع الناس من غلب هواه».

وفي هذا يقول سعدي:

گــرت ازدست بــر آيــد دهنى شيــرين كن

مــردى آن نيست كـه مشتى بــزنى بــردهنى

(اذا كنت قادرا حقاً فلتطيب فماً
اذ ليست الرجولة أنْ تضرب فماً بقبضتك)

انه يقيس الرجولة فيمن يثور غضبه ويتحول الى أتون من نار، فيقول: ان من كانت له ارادة قوية تقف بوجه ذلك الأتون وتطفئه فهو الرجل، وهذه هي القوة، وكذلك الأمر اذا هاجت شهوة الانسان واهواؤه عندئذ اذا وقف امام هذا الهيجان فهو القوي، وهي القوة، ان كل هذه المحاسن الاخلاقية التي يقول بها الاخلاقيون، والتي يردها السيد نيتچه على اعتبار انها ضعف، انما هي القوة. صحيح ان هناك احيانا حالات ليست من القوة في شيء، بل هي الضعف بعينه، ولكنها قد تختلط مع حالات القوة خطأً. ولذلك لا يفتأ الفلاسفة يرددون بأن العاطفة يجب ان تكون مع العقل والأيمان، اي لا يكفي مجرد استثارة عواطف الانسان، بل لابد من قياسها بمقياس العقل لمعرفة ما اذا كانت تلك العواطف منطقية وفي محلها أم لا.

وهذا سعدي يقول:

ترحم بر پلنگ تيز دندان
ستمكارى بود برگو سفندان
(الترحم على النمر ذي الناب الحاد
يكون عملا ظالما بحق الاغنام)

فانت اذا شاهدت من يترحم على ذئب، مع ان ذاك الذئب قد افترس مئآت من الغنم، لأن ذلك من طبائعه، فان عاطفة الترحم هذه تساوي القسوة البالغة بحق الاغنام، بديهي إنَّ هذا للمثال، القصد هو إنَّ ابداء الرحمة والعطف على انسان ظالم عاتٍ إنَّما هي القسوة على مَنْ هُمْ تحت يد ذلك الظالم من المظلومين والمحرومين. ان الضعفاء هم الذين يترحمون على الظالمين.

في القرآن آية نزلت بشأن الزاني والزانية، اذا كان متزوجيْن فعقابهما في الاسلام الموت رجما فيقول:

﴿الْزَانِيَةُ وَالْزَانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ، وَلَا تَأْخُذْكم بِهِمَا رَأْفَةً فِي دِينِ اللّهِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بَاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخرِ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١١٥).

ههنا العقاب الألٓهي بموجب القانون الألٓهي الذي وضع على وفق المصلحة العليا، مصلحة البشر العامة. فهنا لا مجال للعواطف والانفعالات التي قد تتهيج لمنظر انزال القصاص. لذلك ينهى اللّه القائمين بالامر عن ذلك ويطلب منهم ألا تأخذهم بهما رأفة، لأن هذه الرأفة هي القسوة عينها بحق

١١٥ ـ سورة النور، الآية ٢.

المجتمع. وهذا موضوع ما يزال موضع اخذ ورد. فبعض يعارض وجود عقاب الأعدام قائلا انه غير انساني، وان الجاني، مهما تكن جريمته، فلا ينبغي ان يعدم. ويسوغون رأيهم هذا بقولهم انه يجب اصلاح الجاني، ومنعه من ارتكاب الجرائم. ولكن قد لا يكون في المجتمع قدر كاف من التربية، كما هي الحال في معظم المجتمعات، حيث تنعدم عوامل الاصلاح وتقوم مقامها عوامل الفساد والافساد، او حتى لو كانت عوامل الاصلاح موجودة، فهناك دائما في المجتمعات عناصر شاذة تظل ترتكب الجرائم على الرغم من كل اصلاح، فما الرأي في امثال هؤلاء؟ فما ان تلغى عقوبة الاعدام حتى يكون هؤلاء الجناة الذين لم يفد فيهم اصلاح اشبه بالاحرار فيما يفعلون، سواء أكانت التربية الصحيحة مفقودة في ذلك المجتمع، أم كانت موجودة ولكن دون الكفاية.

فهل يجوز لنا ان نترك المجرم يرتكب الجرائم بحجة اننا سوف نحاول اصلاحه بعد ذلك؟ أليس في هذا تشجيع للجناة على الاجرام؟ ان المجرم يرى ان المجتمع لم يعن به طيلة حياته، وفي طفولته لم يربّه ابوه تربية صالحة، وعندما كبر لم يفكر احد في نصحه وتوجيهه، الا بعد ارتكاب جريمة تدخله السجن، فيسعون هناك الى اصلاحه.

او يقول آخر: لماذا يجب ان نقطع يد السارق؟ انه عمل

بعيد عن الانسانية. هذا هو ما يقوله قصار النظر، طبعا. لكم ان تتصفحوا الجرايد لتدركوا مقدار الجنايات التي تسببه هذه السرقات فضلا عن الأموال التي تسرق، بل ما اكثر حوادث القتل التي تجرها حوادث السرقة هذه. فلو نفذت عقوبة السرقة في محلها، وادرك كل سارق انه اذا سرق وافتضح أمره فانه سوف يفقد اصابعه الاربعة وسوف يظل يتحسر عليها طوال حياته كلما أبصر بها مقطوعة، أقسم بالله لو حدث هذا ونفذ القصاص في سارقين اثنين، او حتى في سارق واحد، لَما بقي من يفكر بالسرقة إطلاقاً.

ان الحجاج الذين حجوا الى مكة قبل خمسين او ستين سنة قد سمعوا كيف كانت السرقة متفشية هناك بشكل عجيب، بحيث لم تكن قوافل الحجاج تجرأ على التحرك اذا كان عددها اقل من ألفي حاج على الرغم مما كان معهم من السلاح والعسكر. ومع ذلك فلم تكن تمر سنة بغير ان يسمع عن الغارات التي تتعرض لها قوافل الحج وعن عدد القتلى، وعن الاموال المنهوبة. ولكن ما ان بدأت الحكومة السعودية بقطع اصابع السارق حتى قضي على السرقة قضاء تاما، بحيث ان امتعة الحاج قد تفقد منه وتظل اياما في مكانها دون ان يجرأ أحد على مد يده اليها. كل هذا لأن عقابا قد نفذ في موضعه ووقته. وهذا القرآن يقول: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أجل، هذه رأفة غير منطقية، اذ

أنها قسوة ظالمة بحق الآخرين.

اذن، فان مذهب القوة الذي لا يفتأ يكرر الكلام على الانسان الأقوى، فضلا عن كونه يتغاضى عن القيم الاخرى، فانه لا يدرك مفهوم القوة حق الادراك. ان القوة هي ان تسرع في اعانة الآخرين. الروح القوية هي التي تدفع بالإمام ان يقول لِوَلَدَيْه: «كُوَنَا لِلْظَالِمِ خَصْمَاً وَلِلْمَظْلوُمِ عَوْنَاً»(١١٦). هذه هي القوة. اما الحقد والحسد والعدوان مما يقترحها السيد نيتچه انما هي في الواقع ناشئة عن الضعف. ان من يحب دائما ان ينتقم من الناس، ومن لا يحب الخير لأحد، وذلك السادي الذي يُحبُّ انزال الاذى بالآخرين، هؤلاء ليسوا على شيء من القوة، كما يقول نتيجه، بل هم من أضعف الضعفاء، فكلما كان الانسان أقوى، كان أقل حسدا وحفيظة.

يقول الامام الحسين (ع): «القدرة تذهب الحفيظة». وهي مقولة ذات معنىً عجيب مبني على معرفة دقيقة بعلم النفس. فالانسان عندما يحس بالقدرة في نفسه لا يمكن ان يحس بالحفيظة على أحد، وتلك هي النقطة المقابلة للانسان الضعيف. ان الضعيف هو الذي يحقد على الآخرين.

---

١١٦ ـ نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.

وثمة تعبير آخر لأمير المؤمنين علي (ع) في باب الاغتياب. سئل عليه السلام عمن يكون من المغتابين، فقال (ع):

«الْغِيبَةُ جَهْدُ الْعَاجِزِ»[117].

وذاك هو الضعيف، فالانسان القوي المقتدر ليأنف من اغتياب الناس، لأنه يرى ذلك من عمل الوضيع المنحط، وهذا علي (ع) يعزو الغيبة الى الضعف، لأن الانسان القوي المقتدر لا يفعل ذلك. كما انه يعزو الزنا ايضا الى الضعف، فيقول: «مَا زَنَىٰ غَيُورٌ قَطُّ.»[118]، وانما يفعل ذلك الذي لا غيرة فيه، وهذا يكون انسانا يستشعر الضعف في نفسه، لأنه لا يرى في نفسه القوة اذا ما عرّض عرضه للهوان. الا ان السيد نيتچه لا يعرف شيئا عن هذه القدرات، وكل ما يعرفه هو قوة العضل، قوة السلاح القدرة عنده هي ان تمتلك الحديد وان تضرب به كل من لا يمتلكه. ان الانسان الأَعْلىٰ الذي يقول به نيتچه يعني حيوانا ضخما، انسانا له من قوة العضل حظ كبير، ولكن لاحظ له البته من القدرة الروحية والقوة المعنوية.

فالقدرة في الاسلام من القيم الانسانية ومن كمالاتها، وهي ملمح من ملامح الانسان الكامل في الاسلام. ولا شك في ان

---

١١٧ ـ المصدر نفسه، الحكمة ٤٦١.

١١٨ ـ نهج البلاغة ص٥٢٩.

الاسلام لا يحب الانسان الضعيف: «ان الله يبغض الواهن الضعيف».

إلا ان الاسلام لا يعتبر القوة هي قيمة الانسان الوحيدة، لانه يؤكد القيم الاخرى ايضا. ثم مفهوم القدرة والقوة من المنظور الاسلامي يختلف عن مفهومه عند نيتچه والسفسطائيين. ان الاسلام يعلم ان في الانسان قدرات عديدة، وهو يغذيها ويحركها بما يؤول الى نتائج تختلف عما يقول به نيتچه. نتائج فيها كل الخير للمجتمع. انه يقول: اذا رق قلب الانسان فانه ضعيف. كلا. ان رقة القلب هي فيض الرحمة والجود وحب الخير للآخرين. لماذا لا ينظرون الى الموضوع من جوانبه الآخرى؟ هذا الموضوع ينبغي ان يطرح هكذا: هل فيض الانسان المقتدر هو الذي يصل الى الآخرين، أم فيض الانسان الضعيف؟ هل ايصال الخير دليل على القوة أم على الضعف؟ انه دليل على القدرة والقوة.

المدرسة الاخرى المنتشرة اكثر في الهند، والتي يروج لها المسيحيون الى حد ما، هي مدرسة المحبة. بديهي ان المسيحيين يسمون دينهم دين المحبة، ولكنهم قد اوصلوا ذلك الى حيث يجب تبديل الاسم بدين الضعف. اي مدرسة معرفة الضعف. اما مذهب الهنود فيمكن ان يطلق عليه اسم مذهب المحبة، ففي هذا المذهب يرون كمال الانسان يساوي خدمة

الناس ومعاملتهم بالمحبة. وهذا يقف في النقطة المقابلة تماما لمذهب نيتچه، فكل الذي انكره نيتچه قال به هؤلاء نقطة بنقطة. يقولون ان الانسان الكامل هو الانسان الذي يصل خيره الى خلق الله، والانسانية تعني ايصال الخير الى الناس. أما في المذاهب الغربية عندما يقولون: الانسانية وحب الانسان، أتراهم يقصدون خدمة الناس ومحبة الناس؟ عندما يرد في صحفنا ومجلاتنا ان الامر الفلاني انساني او انه غير انساني، انما المقصود هو انه في نظر الناس ىنفع الجميع، وغير الانساني هو الذي لا خير فيه للناس. وعليه، فما الانسانية الا خدمة الناس، حتى ان شيئا من ذلك قد جاء على ألسنة شعرائنا، مع بعض المبالغة. يقول سعدي:

عبادت بجز خدمت خلق نيست
به تسبيح وسجاده ودلق نيست
(ما العبادة الا خدمة خلق الله
لا بالمسبحة والسجادة والخرقة)

بديهي ان مقصود سعدي شيء آخر. ان مقصوده هو انتقاد المتصوفة الذين لا عمل لهم سوى التسبيح والسجادة والخرقة التي يعرفون بها، بغير ان يخطر لهم القيام بأي عمل خيِّر للناس. فعلى الرغم من ان سعدي كان من الدراويش، فانه يخاطب منهم اولئك الذين لا يفهمون شيئا من عبادة خدمة الناس، فينتقدهم

بهذا البيت المبالغ فيه.

وهناك آخرون يعبرون عن ذلك بتعبيرات مختلفة، ومخطئة، اذ يقول بعضهم (مى بخور منبر بسوزان مردم آزارى مكن) أي اشرب الخمر، واحرق المنبر، ولا تؤذ الناس. ففي نظر هؤلاء لا يوجد في الدنيا الا سَيِّئة واحدة، وهي ايذاء الناس، ولا توجد إلا حسنة واحدة، وهي الاحسان الى الناس.

إنَّ مقولة مذهب المحبة هي أنَّ الكمال كمال واحد فقط، والقيم قيمة واحدة ليس غير، وهي فعل الخير للناس، وان هناك منقصة واحدة فقط، وهي ايذاء الناس.

علينا، اذن، ان نقوّم هذا المبدأ ايضا، فمن حيث فعل الخير للناس وخدمتهم، فانه من القيم الانسانية الألهية، وما من شك في ان محبة الناس، وحب الخير لهم، والتألم لشقائهم، يعتبر كمالا من الكمالات وقيمة من القيم الاسلامية، ولكن الاسلام لا يرتضى الاقتصار على ذلك:

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأَحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[119].

والأيثار مبدأ في تعاليم القرآن، وهو يعني ان الانسان يقدِّم

---

١١٩ ـ سورة النحل، الآية ٩٠.

غيره على نفسه فيما هو مَلَكَهُ ويحتاج اليه، والأيثار من أجلّ المظاهر الانسانية التي يذكرها القرآن بالثناء، فعندما آثر الانصار المهاجرين على انفسهم، قال:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَتْ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[120].

أو في الآيات التي نزلت بخصوص علي والزهراء والحسنين واهل البيت، فيقول:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلاَ شُكُوراً﴾[121].

فعلى اثر مرض يصيب الحسنين ينذر علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام الصيام، فيصومون، يقوم علي (ع) باعداد الشعير، وتقوم الزهراء (ع) بخبزه وتحضيره للافطار. وعندها يطرق يتيم بابهم يطلب طعاما، فيعطونه ما اعدوه لافطارهم. وفي اليوم التالي والذي يليه كذلك. فتنزل الآية المذكورة في حقهم. هكذا يكون الايثار، وله قيمة انسانية رفيعة جدا، وهذا مما لا شك فيه، اذ ان الاسلام يثني عليه، وعلى العموم، فان الرحمة والمحبة والترحم والعطف من الأمور التي

---

١٢٠ ـ سورة الحشر، الآية ٩.

١٢١ ـ سورة الانسان، الآية ٨.

كثيرا ما يحث عليها الاسلام .

دخل احد الاشراف الجاهليين على رسول الله (ص) وفي حجره احد ابنائه يقبله ويشمه ويظهر حبه له . فالتفت اليه الرجل وقال: إنَّ لي عشرة من الأولاد لم اقبل احدا منهم ابدا . وهذا هو مذهب نيتچه، لأن التقبيل يعني المحبة والرحمة وهذا ضعف وخفة للانسان القوي .

يقول هذا الحديث: فغضب رسول الله غضبا احمر له وجهه والتمعت عيناه، وقال: «مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ» . ثم قال له ان الله قد نزع الرحمة من قلبك . وهناك اخبار وروايات كثيرة بهذا الخصوص وخير مثال على ذلك حياة أمير المؤمنين (ع) فقد كان مثالَ الرحمة والمحبة . لقد كان علي (ع) انسانا تجده امام الضعيف بحرا من المحبة والرحمة .

لقد سبق ان اشرنا الى ان نفسية الغربيين تستند الى القسوة، فهم قساة القلوب . وهذا ما يعترف به الغربيون انفسهم، ويعتبرون هذه العواطف من المحبة والاحسان والتسامح، عواطف شرقية وحتى الحب المتبادل عادة بين الابوين وابنائهما وبين الابناء وابويهما، وبين الاخوة والاخوات كلها نادرة الوجود عندهم . وهذا ما ادركه الشرقيون واعترفوا بأن العواطف الانسانية لا وجود لها الا في الشرق، وان الحياة في الغرب جافة . واذا

كانت العدالـة الاجتماعيـة موجـودة في بلادهم فـان العواطف الانسانية قليلة الوجود.

يحكي احد الاصدقاء انه كان مريضـا فسافـر للعلاج الى النمسا حيث اجريت له عملية، وكان يقضي هناك فترة النقاهة. يقول: في احد الايام كنت جالسا مع ابني في احد المطاعم، وكان ابني يقوم على خدمتي. وكان على مائدة اخـرى يجلس رجل وامرأة بدا عليهما انهما زوجين، الا انهما كانا يـراقباننـا واتفق ان مـرّ ابني بهما، فـلاحظت انهمـا يسألانـه عن بعض الأمور. ولما عاد سألته عما كانا يريدانـه فقال: سـألاني عمن يكون هذا الرجل الذي تخدمه كل هذه الخدمـة، فقلت: انه أبي. فقالا: فليكن وهل يلزمك ذلك بأن تفعل ما تفعل؟ قال ابني: فاجبتهما باللغة التي يفهمانها، وقلت انك تصرف علي في دراستي وترسل لي المال. فازداد عجبهما لقيامك بالانفاق على دراستي. ثم رأيتهما يقومان من مكانهما ويلتحقان بنا على مائدتنا لتبادل الحديث. قالا ان لهما ولدا يدرس في الخارج الا ان ولدي قال لي بعد ذلك انه تحقق من اقوالهما فعرف انهما كانا يكذبان، اذ لم يكن لهما ولد بل لم يكونا زوجين، انما كانا قد تعارفا قبل ثلاثين سنة، وبقيا معا لكي يتعرف كـل منهما على اخلاق الآخر، فاذا اتفقا عندئذ يتـزوجان رسميـا، ولكنهما لم يجدا الفرصة لذلك حتى ذلك الوقت. هكذا هم اولئك الناس!

المرحوم محققي الذي ارسله المرحوم آية الله بـروجردي الى المانيا، يقص حكاية عجيبة. يقول: كان من بين الاشخاص الذين اسلموا في زماننا بروفسور من العلماء المحترمين. كان يزورنا كثيرا ونزوره. ثم ظهر انه مصاب بالسرطان فادخل الى المستشفى، وكنا نزوره هناك مع بعض المسلمين. وفي احـد الايام اخذ يشكو، وقال: عنـدما اكتشف الاطبـاء اني مصاب بمرض السرطان، كان ابني وزوجتي حاضرين فلما سمعا ذلك قالا لي: بما ان هذا المرض خطير وانك ميت حتما، فنستودعك الله. وودعاني الوداع الاخيـر وخرجـا، دون ان يقولا ان هـذا المسكين وهـو في هذه الحـالة احـوج ما يكـون الى المحبـة والعطف.

يقول الراوي: بقينا نواصل زيارتـه في المستشفى، حتى جئنا يوما فقيل لنا انه قد توفي، فذهبنا لتشيع جنازته ودفنه، فرأينا ابنه حاضرا، ثم قيل لنا انه لم يحضر الا لكي يسلّم جثة ابيه الى احدى المستشفيات لأنه كان قد باعها لادارة المستشفى قبل ان يموت!

فما من شك في انهم يفتقرون الى العواطف، ولكن ينبغي ألا يغرب عن بالنا ان الكثير مما نقوم به من اعمال ونطلق عليه اسم العاطفة، ليس من العـواطف في شيء، بل هـو نوع من الانانية. فالعواطف هي ان انسانا يستغل حقه المشروع لمصلحة

الآخرين، فهذا الانسان ينبغي ان يكون اولا قد مرًّ بمرحلة سابقة وهي عدم الاعتداء على حقوق الآخرين، واحترامها، واستيفاء حقه الخاص، وبعد ذلك له ان يتخذ من حقه وسيلة يخدم بها الآخرين. وهذا هو الذي يطلق عليه اسم العاطفة الاجتماعية. ولكننا نشاهد انسانا لا يقنع بما له من حقوق، ويسعى في الحياة الى الحصول على المال بأية وسيلة كانت، وقد نراه يوما ينفق الكثير في سبيل صديقه الفلاني، فنحسب ذلك سخاء منه وكرماً وصداقة وعاطفة اجتماعية، كلا، هذا ليس عاطفة اجتماعية، انه الانانية وحب الظهور. انه بكرمه ذاك يريد اعلاء شأنه هو ورفع اسمه هو بين الناس. وليس في هذا شيء من حب الانسان، لأنه داس من قبل على حقوق الكثيرين، وجاء الآن ينفق على انسان آخر. انه ليس من الانسانية في شيء.

او قد تجد شخصا آخر يتصف بالكرم، او ينسب الى نفسه الكرم، ويسمي نفسه مضيافا، ويقول انه رجل، وباب الرجل مفتوح للضيوف. هذا بحد ذاته حسن. ولكنه غفل عن أمر آخر، وهو ان هذه الامرأة التي تعيش في بيته، زوجته، امرأة حرة، ولا حق له في اصدار الاوامر اليها، ولها مطلق الحرية في ان تشتغل في بيت زوجها او لا تشتغل. ولكنه لا يلتفت الى كل ذلك، ويحمل زوجته كل تعب ومشقة ثم يقول انه كريم مضياف. وهل من كرم الضيافة ان أظلم انسانا آخر لاقدم الطعام لضيف؟

ها هو الامام علي (ع) يعين زوجته الزهراء (ع) في البيت في العمل الذي هي اختارته لنفسها بملء اختيارها. انه يساعدها لكيلا يقع على زوجته العزيزة ضغط من العمل كبير. فمن يريد ان يكون عمله مبنيا على اساس من العاطفة الانسانية، يلزمه قبل ذلك ان يكون قد تجاوز مرحلة العدالة، أي ان يكون عادلا ولا يعتدي على حق من حقوق الآخرين، وبعدئذ يكون له ان يتنازل عن حق من حقوقه ويؤثر الآخرين على نفسه. انني اعرف رجالا من علمائنا العظام كانوا حريصين على تجنب اتفه اعتداء على حق أحد. انهم حتى في بيوتهم لم يكونوا يطلبون من زوجاتهم او ابنائهم او بناتهم ان ينجزوا لهم بعض الاعمال التي تخصهم، بصيغة الأمر.

ينقل المرحوم الشيخ عبد الكريم الحائري رضوان الله عليه، عن المرحوم الحاج ميرزا محمد تقي الشيرازي رضوان الله عليه، وكان من كبار مراجع الشيعة، انه لم يكن يطلب شيئا بصيغة الأمر ابدا. فمرض يوما. وفي موعد الغداء جاءته بعض النسوة بطعامه وتركته عند الباب وذهبت الى حال سبيلها الا انه لمرضه وضعفه لم يتمكن من النهوض والايتان بالطعام، فبقي هناك بضع ساعات. وعندما جاءه بعضهم رأى الطعام قد برد ولم يتناول منه الشيخ شيئاً، مع انه كان يمكن ان ينادي على احدهم ليقدم اليه الطعام. ولكنه احتاط في الأمر ان كان يجوز له شرعا

ان يأمر احدا بذلك.

فالايثار لا يكـون ايثارا إلا اذا لم يكن ينـطوي على حب الظهور والانانية.

هناك حكاية عن بعض اصحاب رسول الله (ص) في حرب (مؤتة) تدلك على معنى الأيثار على حقيقته.

جرح عدد من المسلمين في حرب مؤتة، وظلوا مطروحين في مواضعهم والدماء تنزف منهم، وكان العطش قد اشتد بهم. فجاء رجل بوعاء من الماء وراح يسقي المجروحين واحدا بعد واحد. وصل الى احدهم فرآه في آخر رمق من شدة العطش، فناوله الماء ليشرب، فأومأ الجريح الى جريح آخـر طالبـا من الساقي ان يبدأ بذاك لأنه اشد عطشا منه، فاسرع الساقي اليه، فاومأ هذا الى جريح ثالث بأنه أحق منـه بالمـاء، فأسـرع الى الثالث فوجده ميتا، فرجع الى الثاني ليسقيه فوجده قـد مات، فاسرع عائدا الى الأول فاذا به قد مات ايضا.

فما الأيثار ان لم يكن هذا! وكيف يكون نكران الذات ان لم يكن هكذا! انه تقديم حاجة الآخرين على حاجة الذات.

لا شك ان خدمة الآخرين ومحبتهم احدى القيم الانسانية، ولكنها واحدة منها، لاكلها..

والسـلام عـلى من اتبـع الهـدى

مؤسسة البعثة

مؤسسة ثقافية تعنى بشؤون التأليف والتحقيق والترجمة والطباعة والنشر ، بما يلبي حاجة القارىء المسلم أين ما وجد ، لذا تنوعت منشوراتها لتشمل لغات عدة ، منها : الانكليزية ، الفرنسية ، الأوردية ، الكردية ، وغيرها ،

ومستعدة « مؤسسة البعثة ـ بيروت » بتأمين طلبات دور النشر من احتياجاتهم للكتب المطبوعة في لبنان وخارجها ومستعدة أيضاً للتعاون الفعال مع كافة الفعاليات الثقافية في العالم العربي والإسلامي ، إذ هي لبنة من تلكم اللبنات التي يعول عليها المشاركة الجادة في تطوير حركة الكتاب ، وصولاً إلى بناء فكري متطور يبتني على المنهج الثقافي السليم .

صدر من منشوراتنا :

١ ـ فاطمة الزهراء (ع) المرأة النموذجية في الإسلام .	إبراهيم الأميني
٢ ـ جولة في سيرة الأئمة (ع)	مرتضىٰ مطهري
٣ ـ الفطــرة	مرتضىٰ مطهري
٤ ـ الإمام علي (ع) في قوتيه الجاذبة والدافعة .	مرتضىٰ مطهري
٥ ـ السيرة النبويــة .	مرتضىٰ مطهري
٦ ـ الإنسان الكامــل .	مرتضىٰ مطهري
٧ ـ آية الكرسي نداء التوحيد السماوي	محمد تقي الفلسفي

وسيصدر قريباً :

ـ مؤلفات الخطيب . محمد تقي الفلسفي .

ـ الأمثـل في تفسير كتـاب الله المنزل . لـلأستـاذ نـاصر مكارم الشيرازي ، في عشرين جزءاً .

ـ موسوعة مستدركات سفينة البحار .